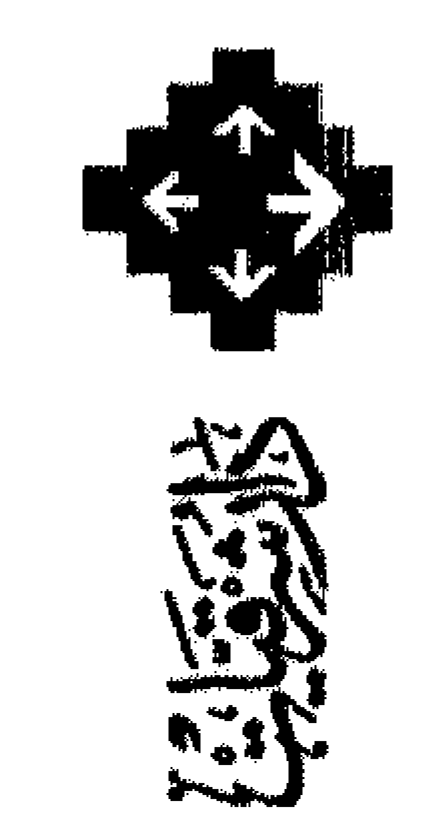
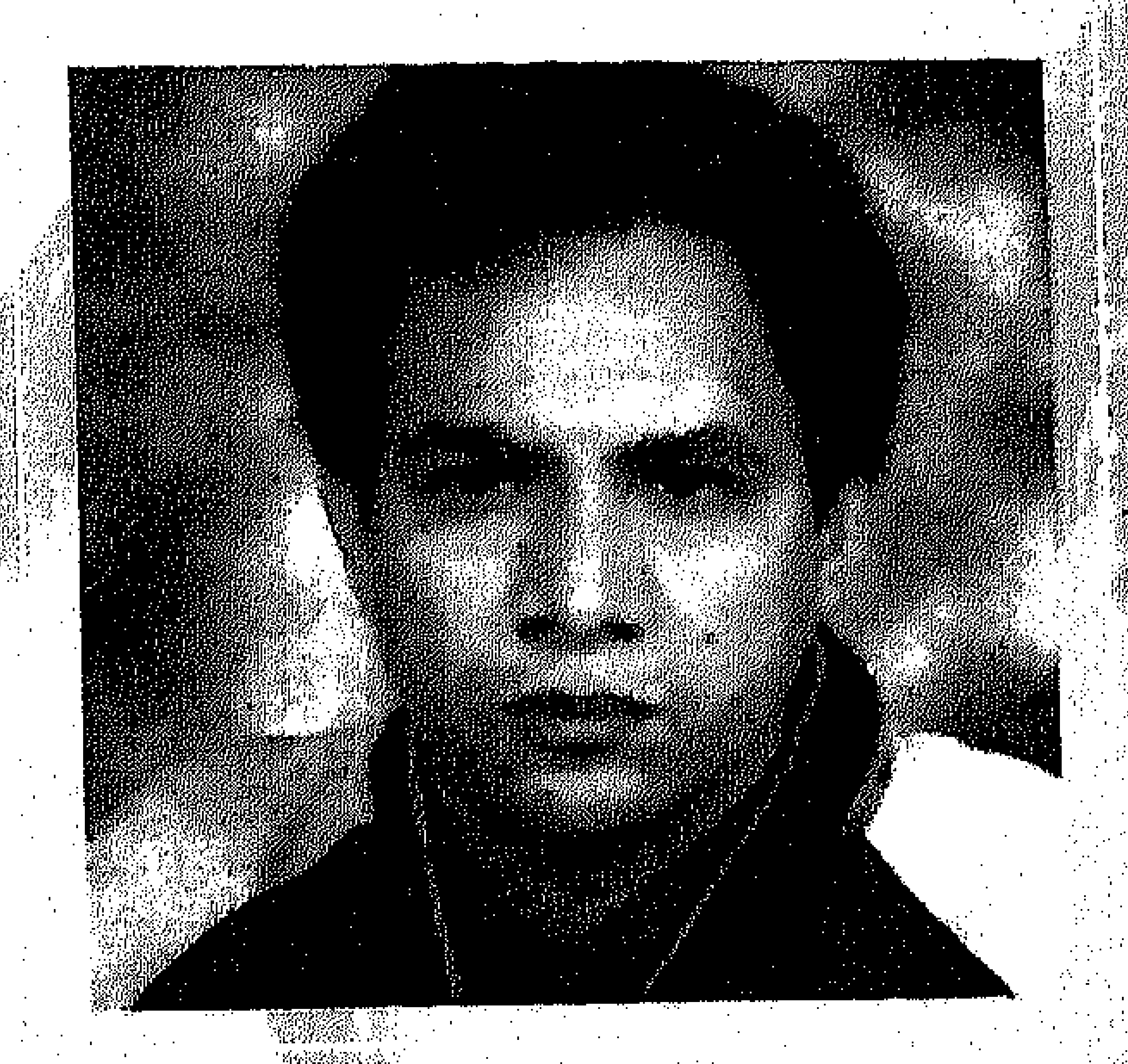
قصص

أحلام منسية

عمار علي حسن





عمار علي حسن

~ من مواليد قرية الإسماعيلية بالمنيا عام 1967، حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية، ويعمل مديراً لمركز بحوث ودراسات الشرق الأوسط - وكالة أنباء الشرق الأوسط.

~ يكتب بانتظام مقالات في عدد من الصحف العربية منها: الأهرام، الحياة اللندنية، البيان الاماراتية، القدس العربي، البلد اللبنانية، الأهرام ويكلي، ونشر دراسات بدوريات عربية عدة، وشارك في مؤتمرات علمية داخل مصر وخارجها.

أحلام منسية



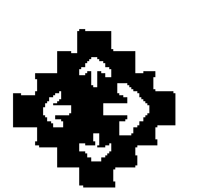
دار شرقيات للنشر والتوزيع

أحلام منسية

قصص قصيرة

عمار علي حسن

الطبعة الأولى ٢٠٠٥



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨

sharq_ca@yahoo.com

تصميم الغلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع: ١٧٦٤٤/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: ٩-٢٠٨-٢٨٣-٩٧٧ ISBN

عمار علي حسن



قصص قصيرة



دار شرقيات

إلى أبطال هذه المجموعة القصصية.
هؤلاء المتعبون الذين يصيدون أحلامهم البسيطة خارج هذا العالم القاسي، وينشدون الأمل والاعتراف، أولئك الذين يصنفهم علم النفس الحديث بين مضطربين نفسيين وعصبيين ومرضى عقليين ومتوحدين ومن يعانون من أمراض نفسجسمية "سيكوسوماتية".

إن هؤلاء يرون أن لهم الحق في السعادة، ويرى بعض من يصفون أنفسهم بالأسوياء، أنهم "معوقون" يستحقون الشفقة، ويؤكد المتصالحون مع أنفسهم أن وجودهم يجعلنا نفهم حقائق أكثر عن العالم والبشر، وأن أيا منا معرض أن ينضم يوما إلى قافلتهم البريئة، هاربا إلى كنفهم فوق أجنحة الأحلام من مطاردة عالم يتوحش.

صائد الفراغ

"أخبرني سأنسى.
أرني فقد أتذكر.
أشركني سأعي وأفهم"
مثل صيني

سأذهب هذا المساء إلى المقهى، وأمضغ الدخان الأسود الخارج من حلوق مرتاديه وأنوفهم. أفرغ ألمي في كوب الشاي الساخن، الثقيل الأسود، الذي يكاد أن يذوب في قطعة العتمة الراقدة عند ركن الحائط. أتابع قرقرة الماء في نرجيلة الرجل البدين، الذي يقهقه بصوت رفيع يؤذي أذني. أرسل عيني الوسيعتين بحثا عن "رمضان"، هذا النادل الأسمر القادم من صعيد مصر. يأتي ويضحك بوجهه، الذي يشبه رغيف خبز خارج من أتون النار، ويقول:

ـ نعم!
ـ كوب شاي آخر.
ـ ثقيل؟
ـ أسود.

يذهب ويترك يدي معلقة في جيب قميصي، أحصي الدراهم القليلة التي أعطتها لي أمي على عتبات المساء. كانت يدها ترتعش، وعيناها تدمعان، وهي تمد النقود لتدسها في يدي الباردة. وسألتها إن كان هناك شيء يحزنها، فهزت رأسها بالنفي، وربتت كتفي. لكني أعرف لماذا هي حزينة، ولماذا تذهب إلى

الحمام لتغسل وجهها أكثر من مرة في الليل والنهار، لتخرج من حالة الضيق التي تنتابها كلما رأتني منزويا في صالة البيت، أحملق في الفراغ الممتد هناك في السماء البعيدة. لكن ليس لي ذنب في اكتئابها الذي تتعاطى من أجله قرصين من الدواء كل يوم، بناء على أوامر الطبيب.

وجارتنا الإماراتية الطيبة، التي تعاملني كابنها، قالت لها ذات ضحى غارق في شمس دفيئة:

ـ هذا قدر الله.

فأجهشت أمي بالبكاء، وهي تداري انكسارها، وقالت:

ـ .. ونعم بالله.

كنت أتابعهما وأنا جالس على طرف سريري وهما لا تلمحاني. وسمعت أمي تسألها:

ـ ملعقة سكر واحدة؟.

فردت ضاحكة:

ـ خفضها الطبيب إلى نصف ملعقة.

وخرجت من غرفتي إلى المطبخ، فواجهتني مبتسمة وقالت:

ـ تناول إفطارك لتشرب معنا الشاي.

وتناولت ملعقتين من عسل النحل المصفى، وملعقة من زبدة الفستق، قبل أن ألتهم شطائر الخبز والجبن. كانت هذه الملاعق جزءا من العلاج. فبعد أن قرأت أمي ذات يوم في إحدى

المجلات الطبية مقالا عن الأغذية التي تساعد على تنشيط وظائف المخ، أصبحت هذه الملاعق مقررا يوميـا، خلافـا لكبـسولات صفراء وبنية قررها الطبيب لتمنع النوبات الحادة التي تهز خلايا جسدي المهيض، وتأخذني إلى عوالم من النسيان والغياب.

قوة خفية تسحب روحي إلى البعيد وتجزئ الناس أمـامي إلى قطع صغيرة. أشلاء من لحم لا يقطر دما. ملامح تتباعد حتى تغور في قيعان لا نهاية لها. ألوان صفراء وبرتقالية لا تلبـث أن تسود تماما، رغم أن عيني مفتوحتان إلى أقصى حـدهما. فمـي يزبد ويرغي، وصدري يفور. أتقلب وأجأر كحيوان يذبح. أسناني قابضة على لساني، وأنيابي وقواطعي سكين يكاد أن يبتره، لـولا اليدان القويتان اللتان تقبضان على فكي وتخلصان قطعـة اللحـم الطرية، التي تربطني بالعالم، من الموت.

نعم تربطني بالعالم، فالجمل البسيطة المفككة، التي تتماوج وتتوه كلماتها في عناء استدعائها من ذاكرتي المجهدة، تجعلنـي أستطيع الحصول على الشاي في المقهى، وتمكنني من أن أقـول لأمي أن الدواء يصيبني بخمول ويضعني أحيانـا علـى حافـة الغياب، وتجعل باستطاعتي أن أقول لأبي العائد من الكـدح فـي إحدى الدوائر الحكومية بأبوظبي أنني أريد هاتفا متحركا كـأخي، وأصرخ ذات مساء في وجوههم جميعا وأقول:

ـ أريد أن أعود إلى عدن.

لكن أمي أخذتني كطفل رضيع فـي حـضنها، وقطـرات دموعها تسح على وجهي، وقالت:

ـ لا بد أن نبقى هنا سنوات.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تحتاج إلى عملية جراحية تكلفتها لا تقل عن عشرين ألف دولار.

ورحلة الحصول على الدولارات طالت. فأغلب ما يتحصل عليه أبي وأمي وأخي من أعمالهم يذهب لسد احتياجاتنا اليومية، وثمن إيجار الشقة التي تطل على حديقة الخالدية، وفاتورة الهاتف الذي يرن كل أسبوع لنصف ساعة كاملة في عدن فيطمئننا على أهلنا هناك، وثمن الشاي الذي أحتسيه في المقهى لأنه ينبه الخلايا غير الميتة في رأسي.

في أحد الأيام تراءى لي أن أبحث عن عمل لنختصر رحلة الحصول على مصروفات علاجي. وسألت الرجل السوداني فارع الطول الأسمر الذي تناديه زوجته دائما يا أبو خضر وفي المقهى ينادونه "يا زول"، إن كان هناك عمل لي في البلدية. نظر إلي من عليائه وسألني:

ـ هل تجيد القراءة والكتابة؟

تهللت أساريري وأجبت:

ـ نعم.

وعاد يسألنني:

ـ كم عمرك؟

ـ ثلا.. ثلاث .. وعش .. وعش .. روون.

صمت برهة ثم سأل مرة ثالثة:

ـ هل أنت متزوج؟

ـ لا .. لا..

وراح يكرر الأسئلة ويجمع إجاباتي المتلعثمة التائهة ويحملق في بحيرتي عيني. فجأة هز رأسه وربت على كتفي في شفقة ومضى. وسألت نفسي عما إذا كانت عيناه الثاقبتين تخترقان جمجمتي وترى الجزء الأيسر المتيبس العاجز أو أنه قد غاص في قاع عيني فرمق ما تحقق منه الطبيب ذات مساء. وضع تليسكوبه الصغير وهز رأسه تماما كأبي خضر وراح يحدث أبي المنكسر.

لكن "أبو خضر" لا يعلم أنني أمارس كافة المهن حين أغمض عيني في النهار الأبيض أو أحملق في الصور المعلقة بجدران صالة شقتنا الوسيعة. أما في الليل فلا أمارس سوى بعض حب عذري لفتاة قمرية دافئة تجالسني وعيناها مملوءتان بتألق النشوة والافتتان.

وحين أفتح عيني في الصباح أتذكر أنني كنت عاجزا حتى عن تقبيلها، لكنني أتشبث بالفراش لأستعيد صورا مبعثرة لفتاة الليل الحسناء. لم تكن سوى تلك البنت الجميلة التي اقتربت مني قبيل الغروب وأنا جالس على كورنيش الخليج، ظهري لنافورة تغيض وتفيض فتصنع نخيلا وأشجارا، ووجهي للماء المسافر إلى العراق حيث عمي الذي لا نعرف عنه شيئا منذ حرب الخليج. رأتني وحيدا وشاردا وحالما، فاقتربت مني. نظرت إلى الساعة السوداء في معصمي الأبيض وسألتني: كم الساعة؟

فوزعت بصري بين العقارب المتقاربة برهة، ثم رفعت رأسي إلى وجهها الفياض بالبشر والروعة وأجبت:

ـ ست .. ستة.. إلا .. إلا .. ربع.

سألتني عن جنسيتي واسمي وعملي، ثم جمعت حصيلة إجاباتي المبعثرة في قبضتها ونثرتها في النسيم المتدفق فوق مياه الخليج ومضت دون أن تنطق بكلمة واحدة. وحكيت لأخي جهاد عنها ونحن نخلد إلى النوم فأعطاني ظهره وقال:

ـ نم.. أريد أن استيقظ مبكرا.

فقلت له غاضبا:

ـ لكن غدا إجازة.

فرد وهو يعدل من وضع الوسادة تحت رأسه:

ـ سأذهب مع أصدقائي في نزهة.

ثم أغمض عينيه وتركني والحزن ينشب مخالبه الحادة في روحي فيأكلها. أردت أن أساله لماذا لا يصطحبني معه، لكنه أسدل جفنيه وراح في سبات عميق. تركت مخدعي وذهبت إلى أمي وأبي لأتحدث معهما، ولما اقتربت من غرفتهما سمعت غطيطا متلاحقا، فعدت إلى سريري، لكن النوم لم يأت أبدا. ذهبت إلى صالة البيت وبدأت أمارس لعبة الحملقة في الفراغ.

قلت في نفسي لا بأس، في الصباح سيذهب أبي وأخي إلى العمل وأمي ستعود جارتنا الطيبة التي زاد عليها مرض السكر أمس فدخلت في غيبوبة، ونقلت إلى المستشفى. قلت لها أن تأخذني معها، لكنها رفضت وقالت:

ـ أنت رجل، وممنوع أن تدخل عنبر النساء.

واغتبطت لقولها، وذهبت إلى مــرآة الحمــام، وتحســست شاربي المقصوص والشعر النابت في ذقني العريض، وغرقت في موسيقي صوت البنت التي سألتني عن الساعة، وأردت أن أســرد على أخي حكايتي القصيرة العذبة عنها، لكنه تركني ونام.

قمت إلى غرفة نومي، وارتديت ملابسي على هدى النــور المتسرب إلى دولابي من لمبات الشارع المتراصة، وخرجت إلى المقهى. كان جالسا في مكانه المعتاد يحتــسي القهــوة، وعينــاه تلتهمان سطور صحيفة "الخليج". رفع رأسه فرآني قادما، فامتلأت قسماته بابتسامة رائقة، وقال جملته المعتادة:

ــ أهلا يا زياد.

أقول لأمي أنه صديقي، فلا تعلق. أخي نهرني ذات يــوم، وقال لي: إنه في مثل سن أبيك، ويعمل في مهنة مرموقة، فكيف يكون صديقك. ملأني غيظ لم ينفض إلا حين قلت لــه مــن دون ترتيب:

ــ نحن أصدقاء .. أليس كذلك.

فرد من دون تردد: نعم.

وحكيت له عن البنت التي سألتني عن الوقت، ومياه الخليج المسافرة إلى العراق. تاه مني في شرود طويل وقال:

ــ العراق...

مط الكلمة حتى تخيلت أن حروفها لن تجد حدا تقف عنده، وسألته:

ـ منذ متى لم تذهب إلى العراق؟

فرد حزينا:

ـ منذ عشرين عاما كاملة.

كان قد قال لي مرات عديدة أنه خرج ليلا من بغداد، وأنه لم ير أهله منذ عشرين سنة، لكني لا أعرف لماذا أكرر السؤال، ولماذا يجيبني حزينا. الليلة فقط حكى لي كلاما في السياسة. لم أفهم سوى كلمات متفرقة عن شعب محاصر وأهل مشردين. وفي طريق عودتي إلى البيت، بعد أن أغلق المقهى أبوابه، تذكرت أنه لم يعلق على حكاية البنت التي رأيتها حين كانت الشمس تغيب. لكني استعدت تفاصيل الحكاية في الصالة المعتمة مرة أخرى.

لم يفارقني الضيق من أخي وأمي فلم أبلع في اليوم التالي أقراص الدواء عقابا لهما. نزعتها من الشريط الفضي اللامع، وألقيت بها في الحمام، لأضلل أمي التي تعد الأقراص علي، كما كانت تفتش عن الواجبات المنزلية السخيفة التي كان المدرسون يلزمونني بها، حتى عجزت عن متابعة معادلات الكيمياء ونظريات الهندسة وقواعد النحو، فتركت المدرسة قابضا على حروف الهجاء، وجدول الضرب، وكثير من قصائد الشعر.

وحين حل المساء تلاعبت برأسي تهويمات زلزلت كياني، وذهبت إلى المقهى لأحتسي الشاي الثقيل، وأمضغ دخان النراجيل، لعل شيئا من الاتزان يعود إلي. لكنني غصت في قيعان بعيدة، وانشطر الوجود أمامي حتى غاب تماما عن عيني المنبلجتين إلى حافة الموت. عاد الجؤار، وسقطت على الأرض،

لساني بين فكيَّ وجسدي يتمرغ على البلاط البارد. حين أفقت وجدت الناس حولي، بعضهم ينظر إليَّ في أسى. آخرون جثوا على ركبهم يدلكون رأسي الثقيل. وسط زحام أجساد الرجال كانت أمي جالسة عند صدري ويداها ممدودتان تضربان وجهي في حنان ووجل.

أخذتني إلى بيتنا الذي لا يبعد عن المقهى سوى أمتار معدودة. راجعت شريط الدواء وامتلأ وجهها بالحيرة. جرت إلى الهاتف، وقالت للطبيب:

ـ زياد تناول الدواء ومع ذلك جاءته النوبة وكانت شديدة هذه المرة.

وضعت السماعة، ونظرت إليّ في أسى وقالت:

ـ الطبيب نصح بزيادة الجرعة ..

لكني في صباح اليوم التالي اعترفت لها بأنني لم أتناول الدواء، لأنها تركتني ونامت، ولم تستمع إلى حكاية البنت التي كلمتني عند الغروب. امتلأت عيناها بالدموع، وأخذت رأسي على صدرها، وراحت تربت على ظهري، وتمسح شعري الناعم بأصابعها النحيفة، التي كانت بضة قبل أن يقول لها المدرسون أنني في حاجة إلى تغيير مسار تعليمي.

كان يوما قاسيا عليها. جادلت أبي طويلا ونامت حزينة. صباح اليوم التالي أمسكت دليل الهاتف وراحت تفتش عن مدارس التربية الفكرية ومراكز تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة. لكن أبي رفض. لا أدري لماذا يشعر أحيانا بالعار، مع أن صديقي العراقي

قال له ذات يوم إن "أينشتين" كان مصابا بمرض نفسي وعقلــي، و"تشرشل" كان يعاني من نشاط حركي مفرط ونقص في الانتباه، و"جون ناش" عالم الرياضيات الذي حاز جائزة نوبل كان مريضا بالفصام. لكنه قال لأمي إن كل واحد من هؤلاء كانت لديه موهبة خارقة في مجاله، وإن كان يعاني قصورا في بقيــة المجــالات. وكنت وقتها خارجا من غرفتي أطرد النوم عن جفنــيّ الثقيلــين فقلت له:

ــ أنا أحب الشعر.

فردت أمي:

ــ أنت تقرأ الشعر لكن لا تكتبه.

وكتبت قصيدة من عشرين بيتا. شعر حر انــساب علــى الورق في عشر دفقات متتابعة. ودفعت بالقصيدة في خطاب إلــى صحيفة "الاتحاد"، ورحت أنتظر. كل يوم أذهــب إلــى المقهــي، أستعير الصحيفة من أي من الجالسين، وأتصفحها سريعا. أصــل إلى الصفحة الثقافية. أجوب الأعمدة والسطور، وأطــالع قــصائد الآخرين لكن قصيدتي لم تكن بينها أبدا.

لا القصيدة نشرت ولا أنا تخليــت عــن حلمــي. أتــابع الصفحات المفرودة عن آخرها من دون جدوى، فأعود إلى البيت منكسرا. أجد الجميع قد ناموا حتى يستيقظوا مبكرا، فــأخلو إلــى متاهاتي الغائمة، وتتهادى من بعيد أطياف حكايات قديمة، فيحــل الشجن، وتتسلل الدموع حتى تبلل الأوراق التي وضعتها أمــامي على طاولة الطعام من أجل أن أكتب قصيدة جديدة.

وعرضت القصائد على صديقي العراقي، فنصحني أن أقرأ شعرا كثيرا، وكتب لي عشرة أسماء لشعراء كبار، وقال:

ـ حاول أن تقرأ أعمالهم الكاملة.

وذهبت صباح اليوم التالي إلى المجمع الثقافي. سألت أمين المكتبة الجالس أمام جهاز الحاسوب المعبأ بأسماء المؤلفين وعناوين الكتب:

ـ أين قسم الشعر؟

كان سؤالي ممطوطا وتائها فامتلأت عيناه بالحيرة وسألني:

ـ هل أنت طالب؟

قلت: لا.

فعاد يسأل: موظف؟

لم أرد، واكتفيت بنظره كسيرة ولسان عاجز، فقال:

ـ سجل اسمك في دفتر الزوار، وهاهو قسم الشعر.

أشار إلى لوحة صغيرة معلقة في سقف باحة المكتبة الوسيعة، مكتوب عليها "الشعر العربي"، تتدلى من حبل، وتحط على رأس الدواوين المرصوصة. رحت أقلب بحثا عن واحد من الأسماء العشرة. التقطت ديوان "هي أغنية" لمحمود درويش، ورحت أمشي تجاه المقاعد التي يتراص عليها القراء. يضعون الكتب على المناضد الطويلة اللامعة، ويدفعون أعينهم إلى السطور المتتابعة.

قبل أن أصل إلى تلك المقاعد لمحت لافتة مكتوب عليها "علم النفس"، مدلاة هي الأخرى من سقف المكتبة. وجدتني متوزعا بين الأرفف أبحث عن وجعي، حتى وضعت يدي عليه، كتاب كبير الحجم عن "الصرع". قبضت عليه، وتاه مني ديوان الشعر بين كتب علم نفس الطفولة، مع أنني لست طفلا. هكذا قالت لي أمي حين طلبت منها أن أحتفل بعيد ميلادي. كنت قد أخبرت صديقي العراقي أنني سأستضيفه بمنزلنا في هذا اليوم واقدم له كوبا من عصير الجوافة الذي يحبه، لكن أمي رفضت وقالت في حزم:

ـ لم تعد صغيرا لمثل هذه الأشياء.

قلت لها أن هذا يفرحني، وأنني أحب أصحابي القلائل، وأنني سأكون سعيدا حين يطفئون الشمعات الثلاث والعشرين، ويصفقون لي. لكنها أصرت على موقفها، مع أن أحدا لم يصفق لي منذ زمن. كانت آخر مرة احتفلت بهذه المناسبة قبل سبع سنوات. يومها كانت شعيرات فاحمة السواد قد حطت بين أنفي وشفتي العليا، وأخريات يتناثرن على ذقني. كانت أمي تنظر إلى هذه الشعيرات على ضوء الشموع اللاهثة. ولما أطفأناها أخذتني في حضنها، وبللت وجنتي بدموعها. يومها لم أكن قد رأيت البنت التي سألتني عن الساعة، ولم أكن قد تعرفت على صديقي العراقي، ولا لفظتني المدرسة.

في طابور الصباح أخذت أوزع قطع الشيكولاته على زملائي، فيقولون لي: كل سنة وأنت طيب. ورآني مدرس التربية الرياضية، فضربني على راحتي بعصاه التي يخافها كل الطلاب.

وقلت له أن عيد ميلادي كان بالأمس، وأنني أحضرت له قطعة كبيرة من الحلوى، فتغضن وجهه بالحزن. ربت كتفي واعتذر لي وطلب مني أن أمر عليه بعد انتهاء الطابور. وحين رسبت في نهاية العام قال لي:

ـ لا يهمك .. ستنجح العام المقبل.

لكنني لم أتمكن أبدا من عبور الصف الثالث الإعدادي. عبره أخي جهاد الأصغر مني بعام واحد، وحصل في النهاية على معهد فوق المتوسط، ثم صار موظفا. في الصباح يستيقظ مبكرا، ليعد نفسه للذهاب إلى العمل. أنا أكون نائما، لكني أتسمع صوت سعاله وتمخطه في الحمام وقرقعة قدميه الرائحتين الغاديتين إلى الداخل والخارج في صالة البيت الطويلة، حتى يمضي مخلفا وراءه فراغا يتسع حين يتبعه أبي وأمي. أدفن رأسي في الوسادة الطرية وأغسل دموع الأمس بدموع اليوم حتى يوقظني آذان الظهر، الذي ينساب من حنجرة ندية عذبة، تملأني خشوعا وأملا. أستيقظ فلا أجد شيئا أفعله إلا أن ألعب "السوليتير" على الكمبيوتر، حتى يصيبني الملل. وحين يعود الجميع بعد الظهر يجدونني متجمدا مكاني أحملق في الفراغ، أو في الصور المعلقة على الجدران.

الصورة التي تواجه الكرسي الذي أفضل الجلوس عليه، دائما ما كانت تأخذ بصري وتفكيري إلى عوالم سحرية، ترتسم في المساحات الفاصلة بين أضلعها الأربعة وبين مكاني الغارق في الدفء من طول الجلوس.

هذه المرة انتبهت إلى أن الصورة لحديقة صغيرة غنّاء، تطل على بحيرة رائقة، تعانق السماء في البعيد، ووسط الشجر تزخ نافورة صغيرة مياها تذوب في الهالات الزرقاء، وتحط على ثلاثة مقاعد خشبية متجاورة فارغة.

وحملقت فوجدت نفسي جالسا على المقعد الأول وفتاتي القمرية على المقعد الثالث. أما المقعد الثاني فامتلأ بأشياء غامضة، كانت تختبئ في البداية وراء تلافيف الشجرة المجاورة، ثم لم تلبث أن أصبحت جليّة كمنتصف نهار مشمس، حين استقرت بيننا.

لم تكن سوى صفحة كاملة من جريدة تتراص فيها أبيات من الشعر، يعلوها اسمي، ببنط أسود عريض، ومبنى كبيرا أبيض، تتمدد على مدخله لافتة مكتوب عليها "بلدية أبو ظبي"، ومبنى آخر عليه لافتة باللغة الإنجليزية تدل على أنه مستشفى لجراحات المخ والأعصاب.

مددت يدي من بين المباني وصفحة الشعر وأمسكت بيدها. كانت طرية ساخنة، كرغيف خبز خارج لتوه من النار، فأشعلت في جسدي رغبة جامحة، راحت تخطفني إليها خطفا، حتى وجدت نفسي أطوقها بذراعين كاملين، وأمطرها تقبيلا في كل وجهها، بعنف كاد أن يسقط اللوحات من جدران صالتنا الكبيرة.

❖

لوعة الغياب

".. ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعثاً من الممات
جذور فرحنا الجديب
لكن هذا الحزن مسخ غامض،
مستوحش غريب
فقل له يا رب، أن يفارق الديار
لأنني أريد أن أعيش في النهار"

صلاح عبد الصبور، من
ديوان "شجر الليل".

هل رأى أحد منكم عبير؟

تقتحم كلمة "لا" أذنه، فيجري هنا وهناك، وينادي في الشوارع المفتوحة على الغربة والضياع:

ـ يا عبير..

ويضيع صراخه بين أبواق السيارات المتململة، التي تبحث عن منفذ للفرار في المدينة المكتظة بالبشر.

خرجت في الصباح بمفردها. هذه هي المرة الأولى التي تتحرر فيها من اليد الحريصة، التي تقبض على أصابعها الطرية. خرجت لتواجه آلاف العيون التي ترمقها وهي تسير مبعثرة الشعر، وفمها مفتوح على الفراغ، لا تدري إلى أن تذهب. وحين خرج من الحمام لم يجدها في شقته الضيقة، التي لا تزيد عن

غرفتين متهالكتين معلقتين على أسطح بناية آيلة للسقوط بعشش الترجمان.

قال له الولد الذي يختفي بياض بشرته خلف بقع الشحم الأسود في ورشة السيارات: اتجهت يمينا.

وراح يجري إلى اليمين ملهوفا وعيناه زائغتان في الوجوه والأزقة، حتى وصل إلى المقهي المختفي وراء سحب دخان أسود. سأل الجالسين، فقال له رجل من أولئك الذين ينتظرون من يعرض عليهم أي عمل فلا يبيتون كاسفي البال:

ـ انحرفت يسارا في هذه الحارة.

لكن الحارة التي قطعها جريا لم تنبئه بشيء. فمرق إلى كورنيش النيل، وقطعه يسارا ويمينا حتى كوبري "أبو العلا" ثم عاد أدراجه لاهثا، يمرر عينيه على المياه المنسابة والشارع العريض وجذوع الأشجار المطلية باللون الأبيض، المتراصة في تتابع، تنتظر العاشقين الذين يهلون إليها عصرا، حتى وصل إلى "منيل الروضة". انعطف يمينا على كوبري "عباس"، ودار في حي الجيزة، يبذر الأسئلة ولا يحصد سوى كلمة "لا". وغابت الشمس خلف عمارات شارع الهرم الشاهقة، وحلت مكانها مصابيح لا تساعد عينيه المتعبتين أبدا على الرؤية بوضوح. ولأول مرة، شعر أن المدينة متوحشة، والغياب مر، والحياة من دونها مستحيلة. وملأته الحرقة، فصرخ بصوت متقطع، تبلله الدموع:

ـ يا عبير..

وجاءه الصدى من نوافذ الشقق المعلقة في طرف السماء، حاملا لوعته وحسرته.

ونصحه جاره، الموظف في هيئة بريد العتبة، أن يبلغ أقسام الشرطة، ويبحث عنها في دفاتر المستشفيات. وجارة الآخر، الذي طالما كان يحضر لها قطع الحلوى من المصنع الذي يعمل به، ذهب إلى مكتب الطباعة، ليكتب ورقة بأوصافها، يوزعها على جدران الأتوبيسات والمساجد والمقاهي والمطاعم وأيدي العابرين.

ويقرأ الناس ورقة مكتوبة ببنط أسود كبير:

"خرجت ولم تعد"

الاسم: عبير محمود سلامة
الحالة: معاقة ذهنيا
السن: ١٦ عاما

الملامح: طويلة، قمحية اللون، ناعمة الشعر، ذات أنف صغير وعيون وسيعة، حافية القدمين، ترتدي جلبابا أزرق به ورود صفراء. في أذنها قرط بلاستيكي أحمر.

من يجدها يتصل بالهاتف رقم (...) أو يسلمها إلى العنوان التالي (...). "ومن فرج عن مؤمن كربة من كربات الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة"

ولكم جزيل الشكر

ومر أسبوع كامل من دون أن يرن الهاتف في بيت جاره، الذي كان يقول لها دائما "أنت بنــت مبروكـــة". وعبــث بعــض المراهقين والأطفال بالأوراق الملصقة على الفواصل الزجاجيــة التي تمنع ركاب الأتوبيسات من السقوط على رؤوس السائقين في ساعات الزحام الكثيرة، حين يضغطون بأرجلهم على الفرامل في إشارات المرور، أو حين تخطئ ســيارات الأجــرة والملاكــي والمشاة في المرور وعبور الشوارع بسرعة فتكاد الأتوبيسات أن تدهسهم. وتمتم أبوها في انكسار:

ـــ قد يكون أحد الأتوبيسات قد دهسها.

لكن صاحبه طمأنه وهو يسحب نفسا عميقا من نرجيلته:

ـــ كنا قد عثرنا عليها في إحدى المستشفيات.

وحفر رجل كان يجلس في المقعد الأمامي لأتوبيس "٩٥"، في ذاكرته فوجدها واقفة على أحد أرصفة شارع "المنيل" تلــوك شيئا. والتقط قلما من جيبه وسجل رقم الهــاتف علــى الــصفحة الأولى من جريدة "الأهرام".

وبعد ســاعة واحــدة رن الهــاتف، فاســتقل الأب أحــد الأتوبيسات التي تمر بشارع "المنيل". هبط في محطة "الغمراوي"، وراح يقطع الشارع ذهابا وإيابا، يسأل عنها العابرين وأصــحاب المحلات، لكن أحدا لم يفده بشيء، سوى تلميذ صغير كان عائــدا من مدرسته، حاملا حقيبته خلف ظهره وعيناه معلقتان باللافتــات الكبيرة الملونة التي تعلن عن أفلام العيد. قال له وهو يشير إلــى حيث مطعم "عنتر الكبابجي":

ـ رأيتها قبل يومين خارجة من هذا المطعم وفـي يـدها رغيف خبز.

وتاه صاحب المطعم برهة استعرض فيها مئـات الوجـوه التي رآها الأمس واليوم ثم قال له:

ـ نعم جاءت وأعطيتها قطعة من الكباب في رغيف، ثـم انصرفت، إلى أين؟.. لا أدري.

لكن الأيام مرت عليه مريرة بعد أن أجهـده البحـث فـي الشوارع، والتردد على أقسام الشرطة والمستشفيات. ولأول مـرة لا يشعر بطعم العيد. كان يصطحبها في مثل هذه المناسـبة إلـى حديقة الحيوان. تملأه الفرحة وهي تتراقص أمام جبلاية القـرود، وتمد إليها حبات الفول السوداني، وأصابع الموز. ويرعبه الخوف حين تقترب من أقفاص الأسود الحديدية، وكأنها تحاول أن تلقـي بنفسها داخلها.

لم يكن له عمل سوى الاعتناء بها، خاصة عقب إحالته إلى المعاش بعد أربعة عقود كاملة من الكدح فـي مـصنع "ياسـين" للزجاج. يوقظها في الصباح، ويأخذها مـن يـدها إلـى الحمـام المشترك بين ثلاث أسر تقطن أسطح بناية متداعية. يعد لها طعام الإفطار، ولا يتركها حتى تقول له بلهجة متآكلة الحروف:

ـ شبعت.

فيقول لها بامتنان:

ـ الحمد لله.

فتسأله في براءة:

ـــ الله الذي ذهبت إليه أمي؟

فيربت كتفها، ثم يضمها في حنان ويقول:

ـــ نعم.

فتعود لتسأله:

ـــ متى سنذهب إليها؟

فيجيب وهو يطالع صورة زوجته المعلقة في أحد جدران الحجرة:

ـــ يوما ما .. يوما ما.

ثم يردف وهو يتأمل صفحة وجهها:

ـــ كانت تشبهك كثيرا.

وتذكر كلمات صاحبه الذي حذره ذات مساء في ريعان شبابهما من أن يتزوج ابنة عمه. قال بعد أن سحب رشفة طويلة من كوب شاي ساخن:

ـــ زواج الأقارب غير صحي.

فرد عليه في اطمئنان:

ـــ لكنني أعشقها.

ورغم أنها ظلت سنوات عديدة لا تنجب، لم يتضجر منها، ولم تحدثه نفسه، ولو مرة واحدة أن يتزوج غيرها، حتى أنه قال

لأخته الكبرى ذات يوم حين ألحت عليه أن يفكر في إنجاب ولد يحمل اسمه:

ـ عزيزة هي عندي كل النساء، ووجودها معي يغنيني عن التفكير في الأولاد..

وحين أدركها الحمل بعد الأربعين من عمرها كان هو قد فارق العقد الخامس بأشهر قلائل. ولم يهزه أبدا أنه سيحال إلى المعاش، قبل أن يبلغ عمر المولود تسع سنوات، ولا أزعجه قول صاحبه الذي سبق أن حذره من الزواج بعزيزة:

ـ الإنجاب بعد الأربعين تصاحبه مضاعفات صحية للطفل.

وولدت عبير والفجر يدق أبواب المدينة بقوة. وحين ملأت الشمس سماء مشبعة برائحة أطعمة الإفطار، كان الهاتف يرن في إدارة المصنع طالبا إجازة لمدة شهر كامل. فهو لم يشأ أن يترك زوجته، التي هدها تعب الولادة، تواجه حياتها الجديدة بمفردها. وتدرب منذ اللحظة الأولى على العناية بطفلته التي حملت الكثير من ملامح أمها، والقليل جدا من ذكاء أبيها، الذي لا يغلبه أحد في لعبة الشطرنج، وحل المشكلات الحياتية المعقدة التي تعترض طريق رفاق المقهى وزملاء العمل، حتى لقب بينهم بالحكيم.

وراعه بعد ستة أشهر أن ابنته لا تبتسم لأهازيجه، حين يحاول تدليلها، ولا تلتفت كثيرا إلى جلجلة الألعاب الكثيرة التي اشتراها لها من سوق "العتبة"، ولا تكف عن التهام ثدي أمها، الذي أصابه جفاف دائم من كثرة الرضاعة، فلجأت إلى الرضاعة الصناعية بغزارة. ورغم أن هذا كان يكلفه الكثير لم يتضجر أبدا.

كان يخرج من عمله عند الثانية ظهرا. يتناول غذاءه وينام ساعة واحدة، قبل أن يذهب إلى عمل آخر بإحدى الشركات الخاصة، حتى يوفر لأسرته الصغيرة ما يعينها على مواصلة العيش بكرامة. لكن الحال لم يدم طويلا، فقد كان عليه أن يترك عمله الثاني ويفكر في تسوية معاشه من عمله الأول. فزوجته رحلت ذات ليلة لن ينساها، وتركت له من تحتاج رعايتها كل وقته. في تلك الليلة راحت ابنته تصرخ بشدة، وكأنها أدركت أن الأيام المقبلة تحمل حزنا ووجعا لا يطاق، وأن الصباح لن يأتي إلا بفجيعة. وحين كانت الشمس تتأهب لتطل على الدنيا، كانت عيناها مغمضتين في إغفاءة أبدية، والصغيرة معلقة على طرف كتفها الأيمن، تبحث بيدها عن ثدي فارقه اللبن من دون عودة. مد يده وأبعدها قليلا لكنها أطلقت صرخة زلزلته، فنظر إليها، وقال بحرقة: آه يا عبير.

الآن يقولها والشوارع المكتظة بالآدميين قد تعبت من عد خطواته اللاهثة المتلاحقة الممتدة في فجاج هنا وهناك، على الأرصفة، وفي أنهر الشوارع، والميادين، وتحت ظلال البنايات الشاهقة والبيوت المنخفضة في الأحياء العتيقة.

وأصحابه تفرقوا يبحثون عنها في البلاد الأخرى، ليطمئنوا أبيها الذي يتفطر حزنا. لكن أي بلاد تجود بالضائعة التائهة، الذاهبة إلى مكان لا تعرف عنه شيئا، والتي لا تعرف بالتحديد أين تقطن، ولا يعيرها الناس أي اهتمام.

ومرت ثلاثة أشهر كاملة، علقت فيها لوحات أخرى على جوانب الأتوبيسات، وحوائط المساجد، والنوادي، وبدايات

الشوارع ونهاياتها. وأذاعت "القناة الثالثة"، في برنامج "خرج ولم يعد"، عدة مرات، ولا مجيب.

وقالت له أخته بلهجة قاسية:

ــ تكاد أن تقتل نفسك من أجل بنت عبيطة.

فطردها من شقته، وخرج الجيران لينقذوها من يده التي دفعتها على سلم البناية المتداعي، وأخذه جاره إلى المقهى، ويداه تطوقان كتفيه، وتمنعانه من الترنح، لكنه لم يلبث أن سقط مغشيا عليه. وقال له الطبيب بعينين مليئتين بالشفقة:

ــ جلطة خفيفة تحتاج إلى راحة تامة، حتى لا تعود قوية فتجهز عليك.

ونام على سريره الذي يجاور النافذة. يعب من أدوية كثيرة، وعيناه تطلان على الشارع، تراقبان القادمين والرائحين لعلها تهل يوما من الزحام. وغلبه نعاس، فرآها في الحلم ترفرف كيمامة صغيرة في ريح عاصفة. وفجأة صار الهواء ماء هادرا، فهب مذعورا، ينادي صاحبه الذي يجلس هناك في مواجهته أمام ورشته الصغيرة.

وحين صعد إليه وجده واقفا في منتصف الشقة يربط حذاءه، استعدادا للخروج. وذهبا إلى شرطة المسطحات المائية، وقدما بلاغا جديدا. لكن المياه لم تحمل جوابا. ودخل عليه صاحبه ذات صبح وفي يده صحيفة "الأخبار". جلس بجانبه على السرير ومد إليه بالصحيفة، وإصبعه يشير إلى خبر في منتصف صفحة

الحوادث، يتحدث عن العثور على جثة فتاة مجهولة جرفتها مياه النيل إلى شاطئ مدينة المنصورة.

وسافر على الفور إلى هناك، لكن الغريقة التي رأى جثتها خامدة في إحدى ثلاجات مستشفى المنصورة العام، لم تكن وسيعة العينين، ولا سمراء، ولا ذات شعر منساب، وكانت ترتدي بنطلونا أزرق وجونيلة حمراء، وفي أذنيها قرط من الذهب، وليس من البلاستيك الأحمر.

وعاد كسيف البال يقتله اليأس، يوزع عينيه بين الطرقات لعلها تظهر فيها يوما ما. واحتواه رفاق المقهى بحكاياتهم عن الضائعين الذين من الله عليهم بحياة أفضل بكثير من تلك التي كانوا يعيشونها مع أهلهم. وراح النسيان يطمر الذكريات، وجادت الدنيا بحياة نصف تعيسة، مع تراجع الأمل في العثور عليها، والاستسلام لما يفرضه الحال. وقال له صاحبه:

ـ يمكن أن تتبنى طفلة صغيرة من الملجأ؟

فحدق في الفراغ وقال:

ـ لقد عبرت الستين ولم يعد في العمر ما يكفي لتربيتها.

فهز رأسه مؤمنا على كلامه، لكنه عاد إلى القول:

ـ يمكنك أن تستضيف ابنة أختك إلى حين.

ـ سترفض..

ـ لنجرب .. ولن نخسر شيئا.

ولما رأته أخته تجهمت. مدت ذراعها لتسد فتحت البـــاب أمامه، وأبدت تبرما في نظرة صامتة غير مرحبـــة. لكنـــه أزاح يدها مقتحما الشقة على مهل. استقر صامتا علـــى أحـــد مقاعـــد الصالون، يلتقط أنفاسه المبهورة. نظر إليها وقال:

ـ لا تغضبي مني فأنا معذور.

فردت وهي تنسحب إلى الغرفة الداخلية:

ـ أنا مضطرة للخروج بعد قليل لإحـــضار الأولاد مـــن المدرسة.

فنهض واقفا وقال:

ـ ما جئت من أجله لا يحتاج سوى إلى جملة واحدة.

فاستدارت من دون أن تضع عينيها في عينيه وقالت:

ـ قلها لنسترح.

فاقترب منها متوددا وقال:

ـ أنت تعرفين أنني صرت وحيدا..

فتلمظت وقالت:

ـ أكنت تحسبها أنيسا.

فامتلأ غضبا، لكنه تمالك نفسه، وقال:

ـ لا نريد أن نعود للخلاف مرة أخرى.
ـ كدت أن تقتلني وقتها وتسميه خلافا.

ربت كتفها وقال بكلمات مرتعشة:

ـ أريد إحدى بناتك لتعيش معي، وأنا سأتكفل بمصروفات دراستها.

مطت شفتيها في سخرية وسألته:

ـ من فيهن؟

فأجاب بلهفة:

ـ سلوى.

ـ ولما هذه بالذات؟

امتلأت عيناه بالدموع وقال:

ـ لأنها تشبه عبير.

وجلجلت قهقهاتها في أرجاء الشقة وقالت بلهجة حاسمة متشفية:

ـ انس هذا الموضوع تماما.

وخرج من عندها يجر قدمين ثقيلتين. بلع قرصين لدواء الضغط حتى يصرع هذا الصداع الجهنمي الذي يزلزل رأسه، ويطلق الريح تصفر في ضلوعه، ثم جيوش من النمل ترابط على ساقيه.

كان الخريف يرسم آياته على أسفلت الشوارع. أوراق شجر صفراء، وقش صغير وورق وعلب صفيح قديمة كنسها الهواء المشبع بالتراب، وردم بها الممر الضيق المؤدي إلى زاوية صغيرة، عليها مئذنة مضلعة من صفيح. ودخل إلى الممر وقلبه مفعم برغبة لا يعرف كنهها في أن يبكي، ويسيح في لحظة روحانية يسرقها من زمن صاخب، لم يتح له فرصا كثيرة ليجلس مع نفسه.

كانت الزاوية مفروشة بحصر خضراء، وبجوار المنبر الصغير، مصاحف عدة، مد يده إلى أحدها وراح يجلي همه بتلاوة متعثرة، لكنها لينة وشجية، تبعث على الخشوع. وتذكر لحظتها الشيخ سعيد القليوبي، الذي طالما حاول في الزمن الأول أن يعدل لسانه في قراءة القرآن من دون جدوى. كان يقول له:

ـ قراءتك ضعيفة..

فترك الكتّاب وقال له في اليوم الأخير:

ـ المهم أن قلبي يشعر بجلال الكلمات التي أحاول قراءتها.

أين قبر الشيخ سعيد اليوم في دنيا الراحلين. لا بد أن الموت قد خطفه، لينهي صراعه الطويل مع مرض عضال ... فهل خطف أيضا عبير؟

وكاد يجن لهذا الخاطر، لكنه تمالك نفسه، وساح في ظنون لا حدود لها، حتى غلبه نعاس لم يفق منه سوى على أصابع، كانت تغمزه في إصرار. ولما فتح عينيه، وجد رجلاً معمما، يقترب من الخمسين من عمره. قال له بوجه باش:

ـ استيقظ يا حاج، سنغلق الزاوية ..

ففرك عينيه ونظر حوله وقال:

ـ لكن الدنيا لا تزال نهارا.

ـ جميع المساجد تغلق بين الصلوات بناء على أوامر وزارة الداخلية..

هز رأسه ساخرا:

ـ وزارة الداخلية التي لم تجد عبير..

فحملق الشيخ في وجهه وقال:

ـ أتهذي؟

فقال وهو ينهض، شاخصا ببصره إلى حذائه الملقى عند عتبة الزاوية:

ـ طيلة حياتي لم أكن في حاجة ماسة إلى عقلي مثل ما هو الآن ..

ثم مضى لا يعرف إلى أين يسير، حتى انتهى به الحال إلى سور ممتد، تسنده شجيرات متتابعة في هندسة بديعة، وتفوح منه رائحة الريحان. وسلسلت من الداخل موسيقى أيقظت في قلبه أشجانا مطمورة، لم تلبث أن سكتت فجأة، لتفسح الطريق إلى قهقهة، انفجرت بها حنجرة، ليست غريبة عنه. ثم رنت الضحكة مرة أخرى، وهو يصيخ السمع ساندا يده إلى إحدى الشجيرات. وفجأة قفز يقين في داخله بأن ضالته حبيسة بين هذه الأسوار. ودار حولها بسرعة، بحثا عن الباب، حتى وجده هناك في الجهة الخلفية. اقترب من ثلاثة رجال للحراسة مدججين بالسلاح، وقال:

ـ أريد أن أدخل إلى عبير..

فنظر إليه أحدهم باستهانة شديدة، وقال:

ـ عبير من؟

ـ ابنتي، وضاعت مني منذ شهور ..

وتدخل الحارس الثاني قائلا:

ـ هل أنت واع لما تتفوه به؟ .. هل تعلم قصر من هذا؟

ـ لا يهمني .. كل ما أعرفه الآن أن صوت الضحكة التي سمعتها الآن هو صوت ابنتي ..

فقال الحارس الثالث:

ـ ليس في القصر سوى سعادة البيه وأسرته وخدمه ..

فأطرق برهة وقال:

ـ ربما تكون بين الخدم ..

ـ ما اسمها؟

ـ عبير ..

ـ ليس لدينا خادمة بهذا الاسم .. كما أننا نعرف آباء الخادمات الثلاث ومربية الأطفال، وأنت لست واحدا منهم ..

وحين أدرك أن الحوار مع الحراس لن يفضي إلى شيء، خرج صامتا، وراح يفرد خطى سريعة حتى وصل إلى الناحية الأخرى من السور، ثم قفز بقوة حتى اعتلاه، وحاول أن يمنع ساقيه من أن ينحشرا بين السنون الحديدية المدببة، رافعا بطنه بعيدا عنها. ولما رأته الكلاب نبحت وجرت إلى حيث يقف، وراحت تثب إلى أعلى عازمة على أن تنهش لحمه، لكنه تمكن من أن يستدير، وقفز إلى الرصيف، ليجد الحراس الثلاثة محيطين به. نظر في عيونهم صامتا، ثم راح يرفع ذراعيه ليتفادى لكمات وصفعات لم تتركه إلا منكبا على وجهه في بركة من دماء.

وقال أحدهم:

ـ ربما كان يقصد سعادة البيه بسوء.

فهز آخر رأسه نافيا وقال:

ـ ملامحه لا تنبئ بهذا .. إنه مجرد رجل مجنون.

ودفعوه إلى الطريق بركلة قوية، أسلمته إلى الناحية المواجهة من الشارع العريض، فراح يجر رجليه، حتى أصبح وسط الزحام. سار ببطء يتطلع في وجوه العابرين، يستوقف بعضهم متسائلا:

ـ هل رأى أحد منكم عبير؟

❖

مات مفتوح العينين

"... مثل هذا الموت كسب، أجل كسب بالتأكيد لامرئ غمرته المتاعب على هذا النحو. من ثم فإن بوسعي أن أمضي للقاء نهايتي دون مسحة من ألم".

سوفكليس، من مسرحية "أوديبوس"

رقد في حجرة قديمة تآكلت جدرانها، يعبث بيده الضامرة في أرجل الأريكة التي نخرها السوس، لعل الأيام تمضي. إنه المكان نفسه الذي رقدت فيه أمه شهورا طويلة بعد أن وكزها بيده، وقت أن كانت قوية، فسقطت مغشيا عليها أمام جمع غفير من البشر، كلهم جبنوا أن يخلصوها من قبضته.

ولاحت على الحوائط الرمادية ذكرى أيام راحت، لا تزال حاضرة، بحلوها ومرها، في ذهنه، الذي لم يكن على ما يرام. شيء لا حيلة لأحد فيه، جعله غير كل أطفال القرية. هكذا قيل لأبيه حين استدعته المدرسة ليسحب ملف ابنه. واجهه الناظر بوجه عابس:

ــ ابنك يحتاج إلى مدرسة خاصة.
ــ ماذا تعني؟
ــ أقصد مدرسة تربية فكرية.
ــ وأين هذه المدرسة؟
ــ في البندر.

وخرج من عنده لا يعتزم سوى أن يصطحبه إلى الحقـل، ليرعى الجاموسة العجفاء، هناك تحت شـجرة الكـافور، حيـث البنات العائدات من الحقول، يحملن الجرار، بعد أن عب آبـاؤهم ما فيها من ماء. كن حين يلمحنـه يغطـين أفـواههن بـأكفهن، ويمضين بخطوات سريعة حذرة، خوفـا مـن أن يهجـم علـى إحداهن، ويوسعها تقبيلا. كان هو يقف يتأملهن من الأقدام حتـى النواصي بعين شرهة، تكاد أن تعري أجسادهن، المدفونة تحـت الجلابيب الطويلة السميكة. لكنهن مع الأيام عرفن كلمـة الـسر، التي تجعله يهدأ فجأة، ويتوه في ضحكة طويلة، تبرز لها أسـنان صفراء، أكل السوس جوانبها.

كان كلما اقترب من إحداهن، تقول له بقلب مرتجف ولسان يكاد أن تموت الكلمات على طرفه من الهلع:

ـ تعالى لتخطبني في المساء.

فيتراجع مهللا، ويسحب الجاموسة يمنة ويـسرة، وكأنـه يراقصها، ويظل هكذا حتى المغرب، فيعود إلى دارهـم، ويقـول لأبيه:

ـ أريد مهر العروس.

ويتأمله أبوه صامتا، لكنه لا يدع الصمت يطول، بل يـدس يده القوية في جيب جلباب الأب بحثا عن نقود، وحـين لا يجـد يثور. والده يتودد إليه من مسافة غير قريبة. الأم تستعطفه مـن وراء باب الحجرة بعد أن أحكمت غلقها. أخواته البنات يـسرعن ويختبئن في الغرفة الداخلية. وسرعان ما تنطفئ النار المتأججـة، ويهدأ الثور الهائج داخله حين يقول الأب:

ـ سأزوجك بعد أن أبيع القطن.

لكن الأب مات قبل أن يحل موسم بيع القطن، ومات معه الأمل في دنيا سعيدة. كان الرجل لا يبخل عليه أبدا بنقود يشترى بها الحلوى التي يحبها، ويتحدث إليه دائما بلهجة جادة، كأنه يكلم رجلا رزينا عاقلا مثله، ويتجاهل ضحكاته المجلجلة في أوقات الجد، وغضبه في ساعات الفرح، ويشعره دائما بأن له دورا في الحياة:

ـ غدا سنزرع القمح..
ـ قمح .. قطن .. ذرة .. فول..
ـ سنعزق الأرض سويا، ثم نبذر فيها الحب ونرويها.
ـ أريد أن أستحم في المياه.
ـ أنت ستحضر برسيم للجاموسة من حقلنا الآخر.
ـ أريد أن أتزوج البنت خضرة بنت حسين أبو عبد الله.
ـ قم لتنام حتى نستيقظ في البكور.

ويلقى بجسده عند عتبة الباب، يفترش حصيرة قديمة، ويغطى جسمه ببطانية متآكلة، لا يريد أبدا أن يغيرها. وحين يهل الفجر يستيقظ. يقف في منتصف الدار ويصرخ بشدة، كأنه يعاقب الجميع على كسلهم بتأخرهم في النوم، وترج صرخته أركان البيت فتفزع البنات النائمات، وتتمنين لو أن الله يخلصهن من هذا الذي يقض مضاجعهن، ويخيفهن، ويشعرهن أحيانا بالعار، حين يخرجن مع زميلاتهن إلى المدرسة، ويمررن عليه وهو يراقص الجاموسة أسفل الطريق. لكن الأم تغضب حين تسمع هذا الكلام من بناتها، وتقول لهم ودموعها تسح على خديها اللتين قددتهما شمس الحقول:

ـ أحبه أكثر منكن.

ـ وأكثر من أخينا الصغير؟

ـ نعم..

ـ لماذا؟

ـ هو قضاء الله الذي لا اعتراض عليه .. ولدى يقين بأن الله يرزقنا لأنني وأبوكم نحبه.

ـ الله يرزقكم لأجلنا جميعا.

ـ لكنه أشدنا ضعفا.

ـ ضعفا .. إنه أقوى من ثور.

ـ لكن عقله لا يتحمل تعقيدات الحياة.. إنه يعيش في دنيا بسيطة صريحة لا تعرف الغش والخداع.

الشيء الوحيد المعقد الذي سأل عنه يوما هو الموت. قال لأمه بعد أن رحل أبيه بأيام:

ـ أريد أن أذهب إلى أبي.

فاحتضنت رأسه الضخم وقالت:

ـ أبوك مات..

ـ ماذا ...

ـ ذهب عند الله.

ـ ومتى سيعود؟

ـ من يذهب إلى هناك لا يعود أبدا.

ـ وهل أنا سأذهب إليه؟

ـ كلنا سنذهب إليه في النهاية..

لكنه فهم الكثير عن معني الموت حين أسلمت أمه الروح. كان يقف عند قدميها يقبلهما، وهي تغيب إلى الأبد، وحين كانت القدمان تتثاقلان، والساق تلتف على الساق، كانت يدها تمتد في وهن وهدوء إلى رأسه، حتى تخللت أصابعها شعره المجعد، واستقرت بين تلافيفه خامدة.

وقالت له أخته الكبرى بعد أن خلعت أصابعها من شعره:

ـ الآن تبكي وأنت الذي تسببت في موتها.

وسأل الجاموسة في اليوم التالي عن معنى أنه تسبب في موت أمه. جلس أمامها وهي تمضغ حزمة من البرسيم على مهل، وخاطبها وجها لوجه، وظل يلح طالبا الإجابة حتى غربت الشمس، وحانت لحظة العودة إلى البيت. ورأته بنت كانت عائدة من الحقل، تسوق أمامها عشر نعاج، فضحكت وقالت:

ـ ثور يكلم جاموسة..

ولم يعبأ بكلامها للوهلة الأولى، واستمر في طرح الأسئلة على الجاموسة التي كانت تسير متثاقلة من فرط الشبع. لكن البنت عادت إلى الضحك وكررت جملتها غير مرة، فسمعها ولد صغير كان يلعب الكرة على الجسر، فوضع يديه على رأسه راسما بهما قرنين، وقال له:

ـ تقول لك أنك ثور..

حملق في البنت مليا، وكانت لا تزال مستغرقة في ضحكاتها الساخرة، ثم هجم عليها، وطرحها أرضا، واعتلى

جسدها ركلا وعضا وصفعا، وأطبق بأصابع يديه العشرة على عنقها، فجحظت عيناها، وكادت أن تسلم الروح، لولا عشرة رجال من أقاربها كانوا يجلسون عند مدخل القرية، استجابوا لاستغاثاتها. انقضوا عليه وخلعوا أصابعه من رقبة البنت، وأمسكوا كتفيه ويديه في محاولة لتهدئة ثورته الهائجة، لكنه لم يهدأ. كان يجأر ويضرب بكوعيه يمينا ويسارا، حتى أفلت منهم، ثم أخذ يهاجمهم بضراوة. ولم يجدوا بدا من أن يتكاثروا عليه ويشتبكوا معه في معركة لم تنته سوى وهو ملقى على الأرض بلا حراك.

حملوه إلى البيت، وهم يعضون أصابع الندم. لكن أحدهم قال، وهو يضعه على الأريكة القديمة:

ـ لم يكن أمامنا حل آخر..

ولامهم كبيرهم، الذي خلصه من أيديهم قائلا:

ـ هذا رجل يرعاه الله، ونحن اعتدينا عليه..

ورد عليه آخر:

ـ سنداويه على حسابنا.

وقال آخر:

ـ لو أبلغ أحد الشرطة سنتعرض للمساءلة.

فرد عليه رابع:

ـ لا أحد يجرؤ في بلدنا هذه على أن يفعلها.. ثم هذا ليس له أقارب يسألون عنه سوى أخواته البنات.

والبنات اكتفين بمبلغ ضئيل من المال أعطاه لهن الكبير، وبالرعاية الطبية التي يلقاها أخوهم الراقد مستسلما لفراشه الخشن، لا يستطيع أن يهش الذباب الذي ينهش قدميه العاريتين نهارا، والناموس الذي يلدغهما ليلا. ينادي في الهزيع الأخير من الليل على أخواته أن يحضرن له الماء. تنفض كبيرتهن النوم عن عينيها وتجرجر قدمين ثقيلتين إلى الزير الكائن خلف باب البيت الخارجي، تملأ له كوبا كبيرا، تجلس بجانبه، وتضع رأسه على فخذها، وتسقيه الماء جرعات قليلة حتى يرتوي. وحين يجوع تأتي إليه بطبق الأرز الذي يحبه، أو الخبز المبثوث في لبن الجاموسة الحبيسة داخل البيت منذ رقدته، وتؤكله ملعقة وراء أخرى حتى يومئ إليها بالشبع.

ويوم وراء يوم راحت البنات يشعرن بتأوهاته من فرط الألم، ويصدقن أن ما حدث له سينال منه إلى الأبد، كما كن يتمنين. لكن هذه الأمنية راحت حين أخذت الشفقة على حاله البائس تتحول إلى حب أخوي حقيقي. وقالت الكبيرة لهن ذات ليلة:

ــ على كل حال هو أخونا ولا نستطيع أن نتبرأ منه.

فردت الصغرى:

ــ رغم أن قوته كانت تخيفنا، فقد كانت تنفعنا في زراعة الأرض ورعاية الجاموسة، التي جف ضرعها منذ رقدته.

وسمعنه ذات ليلة ينادي بصوت مبحوح يتسرب إلى باب حجرتهن كهمس غامض:

ـ يا بنات ..

وآتين طائعات، يطردن نعاسا ثقلت له الجفون. وقفن عند رأسه الكبير، وشخصن بأبصارهن إلى عينيه الوسيعتين، كانتا مفتوحتين عن آخرهما، والنور المنبعث من لمبة الكيروسين المعلقة في سقف الحجرة ينعكس فيهما، لكنه لم يبدد أبدا هذا الانطفاء الذي فرش عتامة على جنبيهما وفي بؤبؤهما العميقين. وقالت له الكبيرة:

ـ نعم يا أخي ..

فانفرجت أساريره، واتسعت وجنتاه وسألهن:

ـ كيف حال الجاموسة؟

فقالت:

ـ لم تخرج إلى الحقل منذ رقدتك.

تجهم وزمجر بصوت يقطر ألما وقال:

ـ ستموت..

فقالت له البنت الوسطى:

ـ فداك يا أخي .. المهم أن تتعافى أنت..

فأشار إليهن جميعا فاتحا ذراعيه... وكفراشات دائخات ألقين رؤوسهن بين ذراعيه الطويلتين. دموعهن بللت ثيابه السميك، وأدفأت عروقه التي جمدها الصقيع الزاحف من تحت باب البيت الخارجي. كان نشيجه يلف في آذانهن، فيلتهب الإشفاق عليه. وتمتم بكلمات لم يتبينها، لكنهن عرفن أنها ترديد لأمنيات

قديمة، وأحلام تغرب في أفق الغياب. كانت الحروف تشبه لحنا حزينا، يعزفه عاشق أضنته لوعة الفراق.

والبنت الكبرى التي جربت حرقة الهوى، تسمعت إلى قلبه المرتجف، وقالت:

ـ ابنة البقال..

فعادت الابتسامة إلى شفتيه المقددتين وقال:

ـ هي .. هي ..

فقالت وهي تشد على يده الضامرة:

ـ سندفع لك مهرها .. معنا نقود كثيرة.

ومدت يدها في جيبها وأخرجت النقود التي أعطاها لها الكبير، فتطلع بمقلتين ثابتتين، وامتلأت صفحة وجهه بصفاء رائق، وبدا كأنه يخلع رداء المرض تماما، حتى أنه تمكن من الجلوس، والإشارة بإصبعه إلى مصباح الكيروسين، ليقربوه منه. ولما قربوه إليه نفخ بقوة فأطفأه، وقال، وهو يتحسس شعر أخيه الصغير، جملة طالما كان يرددها أبوه:

ـ نوركن كفاية...

وامتلأت عيون البنات بالدهشة والفرحة، ولاحت في الأفق أماني بأيام سعيدة يعشنها في ظل رجل، واستحضرن صورة أبيهم، بحنانه الفياض، وكدحه في سبيل أن يوفر لهن حياة كريمة، وانهلن عليه يقبلن رأسه ويديه، لكنه كان يستسلم لشيء لا مفر منه، راح يزحف من أطراف أصابع قدميه، متوغلا في جسده

المنهك، حتى وصل إلى رأسه الضخم فأسكته، لكنه لم ينـــل مـــن عينيه الوسيعتين اللتين تحتضن البنات والصغير الواقف عند كتفه الأيمن يحدق في الفراغ.

❖

ألحان مجنحة

"... في أعالي شجر النخل نمت ذاكرتي
نبع صفصاف، بكاء
أترى أسمع للجن عزيفا
أم هي الأغصان موسيقى؟"

أدونيس، من قصيدة "الولد الراكض في الذاكرة"

حطت على غصن الصفصاف ورفرفت فاهتز قلبه الصغير وهو يسمع زقزقتها التي تطير في الهواء إلى أذنيه اللاهيتين عن نداء أمه. كانت واقفة هناك في منتصف الحقل تبذر القمح والأمل، يداها ممدودتان في الإناء المملوء بالحب، وعيناها ترعيان هذا الولد الشقي الذي وضع أبوه بذرته ثم سافر إلى الإمارات، ليعمل في مزرعة يحجبها الزجاج عن السماء. ليست مثل حقلهم الصغير هذا المفتوح على المدى.

اليوم هو الرابع من الشهر الميلادي، وغدا ستذهب إلى المدينة لتتسلم قيمة الشيك الذي وصلها بالأمس مدسوسا بين أربع ورقات كبيرة تحتشد فيها كلمات السلام والتحية، التي خص بها زوجها أهل القرية جميعا "كل أحد باسمه"، وتذكرها بوصيته الأخيرة.

قال لها وهو يحزم حقيبته الجلدية القديمة، منزوعة اليدين:

ـ اهتمي بالأرض.

ومنذ أن بشرته بقدوم ولي عهده، ذي الملامح التي تشبهه تماما، يقول لها في خطاباته:

ــ اهتمي بالولد.

لكنها لم تنس الأرض أبدا. ترتدي سراويل الرجال، وتحمل الفأس، وتستمتع بالمياه التي تنساب تحت قدميها راحلة إلى أوصال النبات الأخضر.

وحين وصل ابنها إلى الخامسة من عمره أرسلته إلى كتاب الشيخ عبد الغفور، ليحفظ آيات الله البينات، لكنه لم يحفظ شيئا. ولما سمعت ابن الجيران، الذي يذهب معه إلى الكتّاب يردد بصوت شجي سورة "الناس"، ذهبت إلى الشيخ، فقال لها:

ــ ابنك شقي.
ــ كل الأطفال أشقياء.
ــ لكن شقاوته زائدة عن الحد.
ــ كيف؟
ــ منذ مجيئه، لا يكف عن الحركة والدوران حول العيال. يصرخ أحيانا بصوت مفزع، ويشد "المصاحف" من أيدي العيال، ويتركنا ويخرج إلى باحة المسجد، يتسلق السور، ويجلس متسمعا إلى زقزقة العصافير التي تحط على النخيل وأشجار الصفصاف المحيطة بالمسجد.
ــ اضربه يا مولانا.
ــ لا ينفع فيه ضرب.

لكنها لم تيأس، وأصرت على أن يستمر في ذهابه إلى الكتاب. يذهب إليه عصرا، ويطارد العصافير طيلة الضحى، هنا

في الحقل أو أمام بيتهم، حيث شجرة الصفصاف التي غرسها جده قبل أن يرحل عن الدنيا بثلاثة أشهر فقط.

هو لا يتذكر ملامح هذا الجد الطيب. كان يأتي إلى الحقل، يحمله لبضعة أمتار على كتفيه الضامرتين، ولا يلبث أن يتعب ويقول له:

ـ انزل لتمشي.

ويمسك يده، ويسير معه الهوينى إلى أن تظلهما شجرة الصفصاف. يضعه في حجره ويهدهده لينام، حتى تنتهي أمه من إعداد الطعام، لكنه كان يتملص منه، ويرمي جسده على الأرض، ويسبح كسمكة تتمرغ في وحل غاض عنه الماء تماما.

حين اطمأنت إلى وجوده في أحشائها طلبت من جارهم، طالب الجامعة، أن يكتب لأبيه يبشره. وقال لكفيله مهللا:

ـ زوجتي حامل.

فضحك وهو يقول:

ـ سأزيد معاشك مائتي درهم.

وحين ذهب الجد في الهزيع الأخير من الليل ليستدعي القابلة التي تقطن حجرة ضيقة في طرف القرية، كان يعرف اسم المولود جيدا، فابنه أبلغهم في خطابه الأخير أن الكفيل وعده بمكافأة ثلاثة آلاف درهم حين تلد زوجته على أن يسمي الابن ناصر، وهو الاسم نفسه الذي يحمله الكفيل، فإن جاءت بنتا يكون اسمها عائشة، اسم البنت الكبرى للكفيل، ذات الأعوام العشرة.

تأتي أحيانا إلى المزرعة. تجري هنا وهناك خلف العصافير التي تحط على نخلات تفرد أجنحتها الخضراء الرائعة أمام المزرعة. يهرول أبو ناصر وراءها ضاحكا وعيناه تفيضان بالفرح والامتنان:

ـ ابني هناك الآن يطارد العصافير.

فتقول له البنت: سنأتي إلى بلدكم وسألعب مع ناصر.

فيسمعها أبوها فيقول لمزارعه:

ـ أحضره معك في الإجازة المقبلة.

فيهز رأسه وعيناه ذاهبتان إلى البعيد قائلا:

ـ ابني مغرم بمطاردة العصافير، ولا يسمع إلا تغريدها.
ـ يبدو أنه ولد شقي.
ـ أشقى مما تتصور.. لا يكف عن الجري طيلة النهار .. يتحرك هنا وهناك كأنه يبحث عن شيء ضاع منه في الفراغ، شارد الذهن دائما، مستغرق في أحلام يقظة لا نعرفها.

يضحك ويقول:

ـ هكذا كان ابن أختي الكبرى، لكنه الآن مضرب المثل بين كل أفراد القبيلة في الهدوء والسكينة.

ـ سبحان مغير الأحوال.

ـ مثل هؤلاء الأطفال يعانون من نقص شديد في الانتباه مع حركة زائدة، وليس لديهم قدرة على التركيز في تحصيل العلوم.

ـ آه .. فهمت الآن لماذا يشكو شيخ المسجد من عدم اهتمام ناصر بحفظ القرآن.

ـ كانت أختي مثلك لا تعرف لماذا يرفض ولدها الجلوس في مقعده داخل الصف، ويرفض أن يذعن لأوامر مدرسيه. وكنا في رحلة إلى مصر، قبل أن أعرفك بسنوات، وهناك عرضناه على طبيب نفسي، استجابة لطلب الاخصائية الاجتماعية في المدرسة، وقال لنا كل هذه المعلومات، ووصف لنا الدواء، وها هو الآن مضرب الأمثال في الرزانة.

ـ لكن هل اهتم بدروسه؟

ـ لم يصل إلى الجامعة .. لكنه موظف كفء في هيئة "الهجرة والجوازات والجنسية"، وهو كذلك تاجر عبقري.. عيبه الوحيد أنه لا يحب الاختلاط بالناس كثيرا، والتجارة تتطلب هذا، لكنه يتغلب على هذا بصبيانه الذين ينتشرون في الأسواق كالنحل، ينفذون تعليماته ويحصدون النجاح.

ـ زوجتي تقول في خطابها الأخير أن ناصر لا يحب اللعب كثيرا مع عيال الجيران.

ـ لا بد أنه يحب شيئا آخر ..

هز رأسه وهو يتابع عائشة، تجري هناك بين النخيل، وقال بلسان ثقيل ومرارة قد تطول:

ـ نعم .. يحب مطاردة العصافير التي تحط على أشجار الصفصاف والنخيل.

❖

العالم الرابع

"إن قدرات القطاحل المتوحدين
ربما تحمل أهمية كبرى في فهم سمات الطبيعة
والقدرة على الإبداع"

فاليانورراماشاندران،
مدير مركز الدماغ ــ جامعة سان دييجو

١ ــ مقلتان من حجر

ذاهبتان إلى البعيد لا تستقران على شيء، ولا على أحد. تحملقان في فراغ ليس له حدود، وترتدان كسيرتين مليئتين بالغربة والضياع. ليس بهما وجع ولا فرح، إنما حزن دفين يفيض ألما، وربما شوق إلى عالم لن يولد.

لم يظهر فيهما لمعان النشوة حين مددت إليه لعبة تصفق وتتمايل، وتصنع أهازيج صاخبة، ولا حين وضعت إصبعي السبابة في أذني وفردت يدي وأخرجت لساني وهززت رأسي بعنف وأنا أقهقه وأتمايل راقصا. ولم تظهر فيهما رعشة الخوف حين هممت لأعاتبه بقسوة لأنه ألقى كوبا زجاجيا على بلاط الحجرة فتهشم واستقرت إحدى شظاياه في بطن قدمي اليمنى فسال دمي غزيرا ولطخ المكان. ثابتتان فقط على فقاعات الصابون، التي تولد منتفخة وتموت صامتة، في طبق الغسيل الذي وضعته أمه في جانب الحمام، وعلى حبات الخرز الملون التي رصها في خط مستقيم يلامس الأريكة في صالة البيت الضيقة.

حين خرجنا بعد العصر إلى الحديقة رأيت فيهما احمـــرار الشمس وهي تنسحب في هدوء تاركة وراءها ليلا مقبضا يزحف من دون هوادة، حيث الأحلام المزعجة التي يملأها وجه الطبيب المسترخي خلف مكتبه وهو يقول بعينين واثقتين ولغة جافة:

ـ إنه متوحد.

فيطلق كلامه في عيني شلالات الدمع الحبيس، وتغور بي الدنيا إلى قيعان الألم، فأخرج من عنده والحسرة تأكل روحي.

أجلسه على الأريكة، وأجثو أمامه علـــى ركبتـــي. أضـــع وجهه بين راحتي، وأثبت عيني في عينيه، ثم أكلمه عن اليمامـــة التي مص الثعبان دمها، والتفاحة الحمراء التـــي ســـقطت علـــى الأرض اللينة فتعفنت، والمقهى الذي أرتاده في المـــساء لأذيـــب ألمي بين شهقات الدخان الأسود، ومدرس التخاطب الذي يأتي في المساء مشحونا بالحروف الأبجدية وكلمات عن أســـماء الأشـــياء التي نلمسها ونحسها كل يوم، متلهفا على نقـــودي القليلـــة. لكـــن عينيه لا تنطقان بشيء. يرميهما ويسحبهما سريعا إلى الفراغ.

الليلة غلبه النوم عند أبواب الفجر، فأسـدل جفنيــه علـــى قطعتي الحجر، وفتحت أنا أبواب الشقة ليتدفق الصباح الآتي على عجل. كانت العتمة الرائقة لا تزال جاثمة في أركـــان الحجـــرات والردهات المؤدية إليها. حملقت هناك في الركن القصي فرأيـــت عينيه مثبتتين بالجدار، تحملقان في قطع العتمة الهاربة أمام زحف النور.

ركضت إلى غرفة نومه. اقتربت في هدوء من سريره. كانت شفتاه منفرجتين في ابتسامة مشرقة لم أرها من قبل، ويداه تلوحان وكأنه يحيي حبيبا قادما إليه في حبور، أو يودع عصفورا غرد وطار نحو السماء البعيدة. اقتربت أكثر وجلست على حافة السرير. مددت أصابعي في حذر حتى حطت على جفنيه. رفعتهما وصوت غطيطه يضج في أذني، فبهرني ضوء يسطع من مقلتيه. لمعان مملوء بالفرح، سينطفئ حين يستيقظ عند الظهيرة.

٢ ــ متفرجون

حين بدأ يصفق ويطوح رأسه إلى الأمام والخلف ويصيح بصوت لف المكان التفت إليه الجميع مندهشين.

ضحكت بنت كانت تمسك يد زميلتها، وصوبت امرأة إصبعها ناحيته ليراه زوجها السمين، وقال طفل إنه يشبه اللعبة التي اشتراها له أبوه.

هو لا يبالي بهؤلاء الذين تركوا خيام معرض البضائع، المقام على لسان صناعي يشق مياه الخليج يسمونه في أبوظبي "كاسر الأمواج"، وراحوا يتفرجون عليه. ولم يبال الناس بأمه العجوز السمراء، التي تجلس جانبه هادئة البال، وكأن الأمر لا يعنيها. وهل من الزحام شاب أسمر فارع الطول، يمسك طفلة صغيرة، ذات شعر مجعد وعينين وسيعتين. تقدم نحوهما وهما جالسان على يمين خيمة صغيرة لفتاتين مغربيتين تقرآن الكف

عن طريق الكمبيوتر للمتلهفين على بعض أمل والـراغبين في التخلص من أوجاع كآبتهم القاتمة، والزوجات اللاتي تـردن أن تتأكدن أن أزواجهن لا يفكرون في غيرهن.

تقدم، والناس توقعوا أنه بمجرد أن يلمسه سيتوقف عن التصفيق وتطويح رأسه ويصفعه بيده القوية، أو يشب عن كرسيه البلاستيكي الذي يهتز بعنف تحت جسده الذي لا يتوقف عن الرج العنيف، ويطبق بأصابعه العشرة على عنقه ولا يتركه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. لكنه كان يسير باطمئنان وابنته الصغيرة تلعق مثلجات الفواكه اللذيذة وتشاكس برأسها فقاعات الصابون التي كانت تطير من فوهة لعبة إحدى البائعات الصينيات، وتثير أهازيج الأطفال في الساحة الضيقة التي تفصل خيام البضائع.

ونادى رجل من الزحام وقال:

ــ تعالى هنا يا "زول".

لكن الرجل والبنت تقدما حتى وصلا إلى الطاولة التي يجلس هو وأمه بجانبها، ثم سحب كرسيين، أجلس الصغيرة على أحدهما، وجلس هو على الآخر. مد يده ليسلم عليه، لكنه لم يلتفت. أمسك كفه فترك له يده من دون أن يتوقف عن الهز السريع والتصفيق والصياح والحملقة هناك حيث لمبة معلقة في طرف إحدى الخيام. وأخذ الرجل يحدث المرأة العجوز، والناس شنفوا آذانهم لكن أحدا منهم لم يسمع شيئا.

فجأة انتفض واقفا دون أن يتوقــف عــن التــصفيق وراح يمشي تجاه الناس المحتشدين حوله وفمه مفتوح فـــي ضـــحكة لا يظن أحد أنها ستنتهي. لما رأوه قادما يصفق ويطوح رأسه فـــي الهواء، راحوا يتقهقرون بسرعة، وكاد بعضهم أن يدوس بعــضا. وانتفضت المرأة العجوز من مكانها وأخذت تجري وراءه، وهـــي تقول للجموع في انكسار:

ـــ لا تخافوا .. إنه لا يؤذي .. إنه ليس عبيطا.

وسأل رجل وهو يطلق ساقيه ليندس في إحدى الخيام:

ـــ ما هو إذن؟

وكان الرجل فارع الطول قد لحق بالمرأة وتمكنا سويا من الإمساك بيديه اللتين انطلقتا تصفقان في عنف، فأجاب وهو يولي وجهه شطر خيمة المغربيات:

ـــ إنه متوحد.

٣ ـــ لوحـــة

كان منكبا علي وجهه، يكاد أن يرقد علي لوحـــة بيــضاء، أحضرتها أخته لتستعين بها في الصحافة المدرسية، وقلـــم اللـــون البني مثبت بين إصبعيه كأنه قطعة من جسده. كنت خارجة مـــن المطبخ أحمل كوبا من الشاي وقراقيش الكمون التي يحبها. مددت

واحدة إليه لكنه أزاحها بيده، التي كانت تقبض على طرف اللوحة لتثبتها بالأرض.

استمر في مد الخطوط في عرض اللوحة وطولها ليرسم "شارع الوحدة". وبدا أمامي الشارع نفسه ينام تحت إبطيه، كأن آلة تصوير عبقرية قد التقطه بأكمله. البنايات المتراصة، ومحلات البقالة، ومعارض السلع والملابس، والمقاهي، والمطاعم وصالونات الحلاقة، حتى وصل إلى الجسر الذي يفتح الطريق من الشارقة إلى دبي.

في الطرف الأسفل للجسر أخذ يرسم ملامح وجهين متقابلين. إنها تلك المرأة وذلك الرجل اللذان كانا يقفان عند الظهر يتجاذبان أطراف حديث لم يسمعه ابني، وإن سمعه فلن يعيره أي اهتمام، مثلما لا يهتم بكلامي معه، ولم يتفوه بكلمة واحدة رغم أنه بلغ الخامسة من عمره، ولا يلتفت إلي أبدا حين أناديه في البيت وهو شارد يحملق في نقطة بعيدة لا أعرفها أبدا. يضحك أحيانا من دون أن يكون هناك ما يضحك، ثم ينفجر في بكاء حار فجأة من دون أن يكون هناك ما يدعوه للحزن، ولا يعير هؤلاء العابرين الذين يملأون الدنيا لغطا ومشاكسة وحبورا ليصنعوا الحياة.

أشعر أحيانا أنه يعرف التفاصيل الدقيقة للأشياء والوجوه لكنه لا يتفاعل معها، واليوم بت متأكدة من أن أحاسيسي سليمة. فها هو يحط على اللوحة الكبيرة أنفين وفمين وأربعة عيون متقابلة لم نرها سوى لحظات قليلة حين توقفت السيارة في إشارة

المرور، أثناء عودتنا إلى البيت بعد الزيـــارة الدوريـــة للطبيـــب النفسي.

وتذكرت أن المرأة كانت ترفع يـــدها اليـــسرى، وتـــشير بإصبعها إلى مكان لم نعرفه. انتظرت قليلا، والشاي صار بـــاردا في يدي بينما سقطت القراقيش على الأرض مـــن دون أن أدري، وكدت أن أسقط أنا من هول ما رأيت، فقد كان قد مد ســـن القلـــم ليرسم اليد اليسرى التي تشير إلى البعيد، واليد اليمنى التي تجذب طرف الغطاء على رأسها لتقيها شمس الظهيرة الحامية.

٤ ــ رفرفة

قالت له وضحكتها تجلجل، وتلف جدران الـــشقة، وتحـــط على الشجرة فارعة الطول أمام البناية، فتوقظ العصافير:

ــ يرفرف في بطني!

فبادلها الضحكات قائلا:

ــ طفل هذا أم هدهد؟

وولد طفلا، لكنه حين بلغ الثالثة صار طفلا وهدهدا معـــا. ملامحه جميلة، أحلى من كل الأطفال الذين يلعبون تحت البنايـــة، وهو يقف شاردا، يراقبهم من بعيـــد بعينـــين كـــسيرتين، ويـــداه ترفرفان في الهواء، وفمه يطلق صوتا شبيه بصوت الهدهد.

أناديه بصوت مبحوح:

ـ تعالى.

لكنه لا يلتفت إلي، بل يستمر في دورانه، وتتسع الدائرة لتتعدى المساحة الصغيرة المحيطة بالبناية، وتمتد إلى نهر الشارع. أجرى لأنتشله من تحت عجلات السيارات المارقة، التي لا يخاف منها أبدا، لكنه يقاومني. أجذبه برفق، لكنه يشد يدي وينام في الأرض، رافضا النهوض. أتركه برهة حتى يهدأ ثم يمشي معي، إلا أنه يهز جسده بعنف، ويمد ذراعيه في الهواء، ويرفع كفيه بشكل أفقي، صعودا وهبوطا، ولا تلبث هذه الحركة الميكانيكية أن تصير رفرفة كاملة.

وتيقنت من هذا تماما حين رأيته ذات عصر يطارد يمامة حطت على الرصيف. ركض وراءها فجرت أمامه، ثم فردت جناحيها وطارت، وراح يجري وراءها ويرفرف، ويطلق صوت الهدهد. هذا الصوت الذي طالما سبب لنا وأمه أذى، حين يلفت انتباه المتزاحمين في معارض الملابس، والأسواق، والملاهي. يتملكهم عجب، وهم يرمقونه بعيون محايدة، وهو يجري يمينا ويسارا.

ويبدو أن اليمامة كانت قد اشتاقت لصوت الهداهد فاقتربت منه، ورفرفت على كفيه، فأمسك بها. ولم تلبث أن نامت على صدره، فأخذها إلى البيت، فصارت لدينا يمامة وهدهد. ورميت لها حبات القمح فالتقطتها مطمئنة، ولم تطر رغم أن نافذة الشقة ظلت مفتوحة طيلة النهار. كانت تحط أمامه على كرسي طاولة الطعام، فيقف أمامها، ويميل برأسه ناحيتها ويتأملها. العينان في العينين، وهمساته في أذنها. ترفرف ويضحك وتسود بينهما لحظة

صمت، ثم ينخرطان في حوار لا أسمعه. تمتم لها بأصوات، لا تشكل حتى ربع كلمات، فراحت تهدل، وتعالت ضحكاته.

وقالت أمه وهي ترقب الموقف من بعيد:

ـ يفهم لغة الطير.

فقال أبوه في أسى:

ـ ولا يفهم حتى كلماتنا البسيطة.

وذات عصر طارت اليمامة باتجاه عين الشمس. كانت النافذة مفتوحة، وعيناه مفتوحتان تتابعان رفرفتها، حتى ابتلعها الشعاع الأصفر الأخاذ. وتوقعت أن يبكي لرحيل اليمامة، لكنه لم يفعل. وضع وجهه في فراغ النافذة، رافضا أن يبرحه. لم يتحرك حتى حين أظهرت له أمه طبق البطاطس المحمرة التي يحبها جدا، ويترك الدنيا بأسرها، ليخلو إليها يلتهمها ويرسل نظرات صامته تقول: أريد المزيد.

وحاولنا عبثا أن نخلعه من النافذة، ونأخذه إلى سريره بعد أن تأخرنا سهرا أمام التلفزيون. ولما أعيتنا الحيل في إقناعه نهرناه بقسوة، لكنه بكي بحرقة لانت لها قلوبنا المملوءة بالشفقة عليه، والمعذبة بتساؤلات كثيرة نطرحها حول مصيره حين نخلد إلى النوم، وفي أوقات فسحة نهاية الأسبوع، وحول مائدة الطعام، وبعد الصلاة وقبلها، وبعد دواء الضغط، الذي تتناوله والدته وقبله، وفي بعض ساعات العمل.

ونام كل منا داخله. جسدان مترنحان في نصف جلسة على المقاعد الكبيرة الطرية، وعيون مغمضة، وعقول سابحة في أحلام تغطيها أجنحة ترفرف، وتملؤها شمس ظهيرة الأمس، التي كانت قد اقتحمت ردهة الشقة بقوة، وراحت تلسعنا مــن دون هــوادة، ونحن نتابع ابتعاد اليمامة سريعا إلى جوف السماء.

قبل الشروق بدقائق استيقظنا على صوت هــادر، ففتحنــا عيوننا فإذا بمئات اليمام تحلق في اتجاه الشقة، ترفرف مــن دون أن تبعد أعينها عن يمامة تشير بمنقارها إلــى صــديقها الهدهــد الجالس منذ الأمس ينتظر اليمامات الفرحات.

❖

همس خفي

"ترى لو خلعت عينيك
وثبت مكانهما جوهرتين
فهل ترى . .
هي أشياء لا تشترى".

أمل دنقل، من قصيدة "لا تصالح"

١ ـ أرق

صمت الطبيب برهة ثم تطلع في وجهي وقال:

ـ إذا لم تكف عن إجهاد عينيك بالقراءة ستصاب بانفصال الشبكية.

وخرجت من عنده حزينا، وتركت نفسي للشارع الطويل الذي يشق قلب المدينة الصاخبة، فألقى بي إلى الميدان الفسيح، الذي طالما وقفت في منتصفه وأنا صغير أراقب الناس وهم يمرقون فرادى وجماعات، فتبتلعهم الشوارع الجانبية. واستأثر بعينيّ شارع منها، فذهبتا إليه، واستقرتا هناك على لافتة كان مكتوب عليها في زمن مضى: (مكتبة الحرية). قلت لنفسي بصوت مسموع في أسي:

ـ لم تعد مكتبة .. ولا توجد لدينا حرية.

ونقبت في ذاكرتي وأنا أسير مترنحا إلى بيتي البعيد، فانفتحت صفحات وصفحات. ورأيت نفسي أجرى ذات مساء بعيد

وأنا أهلل بقدوم العيد، حتى اصطدمت برجل نحيل. كان يجلس على كرسيه المسنود إلى حائط المكتبة، يحتضن براحتيه كتابا. ولما ارتطم عنفوان طفولتي المفرط بسكونه الوديع وقع على الأرض. لكنه سرعان ما اعتدل في جلسته ولم يلتفت إلي، وأنا الذي كنت أظن أنه سينتفض من مكانه ويجري خلفي ويمسك بي ويوسعني ضربا. عاد إلى الكتاب واستمر في التهام السطور المتسلسلة بين عينيه. نفضت التراب عن ملابسي ووقفت بعيدا ألتقط أنفاسي المبهورة، أحاول أن أنفذ إلى عينيه المغموستين في عدسات نظارته السميكة، وأسعى إلى أن أفهم سر شفتيه المطبقتين في حزم لا يفارقه الهدوء، وأصابعه العشرة القابضة على الكتاب، وعزوفه عن مشاركة العابرين لهوهم. لكنني وقتها لم أدرك شيئا.

اليوم لم تعد هناك مكتبة ولا رجل يحتضن السطور. صار مكانها محل لبيع أشرطة الفيديو، وسري هو من عشرات السنين إلى حيث يذهب كل الناس في النهاية، لكن صورته لم تفارق خيالي أبدا. كلما جلست لقراءة كتاب جديد أستحضر كرسيه وأصابعه ونظارته السميكة، ثم أنزوي في حجرتي بعيدا عن صخب أولادي. أفتح الصفحة الأولى، وربما لا أبرح مكاني حتى تقع عيني على بطن الصفحة الخلفية من الغلاف. بعدها أجري إلى الحمام، لأرش الماء البارد فوق جفني، لكن الألم لا يرحل أبدا. وتملكني رعب حينما رن في أذني صدى كلام الطبيب، ووجدت نفسي مستريحا للانزواء بعيدا عن أولادي أكثر، ولزخات الدموع الساخنة على الوسادة، وعدم الاستجابة لإلحاح زوجتي للخروج في فسحة نهاية الأسبوع. واستسلمت لشرودي الطويل، صارخا في العيال لأتفه الأسباب.

وذات يوم شعرت أن شيئا ثقيلا معلقا بالمقلتين يشدهما إلى أسفل. نصل حاد يقطع الشعيرات الدقيقة المتناثرة فيهما. فتحت الجفنين، وأطلقت العنان للماء يتخللهما، ويسيح في أرجائهما، لكن من دون جدوى. أغلقت الصنبور، وجففت الماء من عيني ثم ثبتهما في المرآة. حملقت ما وسعني في المقلتين فوجدته هناك في قعر العين العميق، جالسا على كرسيه يلتهم السطور المتتابعة.

٢ ــ زجاج

المرضى يغلقون أعينهم قبل أن يدحرجهم التخدير إلى قيعانه الهادئة، ويعمل الجراحون مشارطهم الدقيقة في أجسادهم المستسلمة لكل شيء. أنا كان يجب أن أفتح عيني اليسرى وسيعة ما أمكنني لأرى الحجر الذي ارتطم بها قبل سبعة أيام في مشاجرة مع جاري السمين. أطلقه بقوة فزلزل مقلتي وصرت أشاهد الدنيا بعين واحدة ونصف أمل في الشفاء.

قلت للجراح في أسى وزميله يطمئن إلى تفريغ الهواء من حقنة المخدر:

ــ مجرد حجر صغير.

فابتسم وثبت عينيه في عيني الواحدة وقال:

ــ ومجرد جراحة صغيرة.

وطوح المخدر رأسي إلى أقصى الكون لأذوب في عوالم لم أرها من قبل. ألوان صفراء فاقع لونها. فضية مبهرة، ثم

سوداء حالكة، لكنني كنت أراها بعينين اثنتين لا عــين واحــدة، كحالي الآن. أمر مهزوما بجوار المحلات المتلألئة. أغرس عيني في الزجاج لألتقط الأسعار المطبوعة على أوراق صغيرة مثبتــة على القمصان والأحذية وزجاجات العطر والنظارات الشمسية.

واهتديت إلى نظارة منها، سوداء كالليل. وضعتها علــى عيني وطالعت وجهي في زجاج المحل فوجدت العين العوراء قد استترت خلف العدسات الرقيقة الحالمة. لكنني كنت مضطرا إلــى خلعها في المكتب والأتوبيس والمقهى، لأنني سمعت يومــا أحــد الزملاء الجدد يهمس في أذن موظف قــديم يكرهنـــي، لــضغائن ولدتها سنوات العمل بيننا قائلا:

ــ يرتدي نظارة شمس في مكتب لا تدخله الشمس أبدا.

ولأنه لم يكن من المناسب أن أرتديها بعد الغروب أيــضا، فكان علي أن أبقى ست ساعات كاملة من الليــل بعــين واحــدة مكشوفة للجميع. لكن المرارة تفجرت كشلال هادر حين ســمعت البنت، التي ظلت فتاة أحلامي قبل الحجر الذي شج عيني وبعده، تقول لأمها في صوت خافت من دون أن تدري أن الله عوضــني عن العين المفقودة بأذن ثالثة:

ــ لا أتزوج أعور.

وقرأت ذات يوم في مجلة نسائية كانت ملقاة علــى أحــد كراسي المقهى تحقيقا مطولا عن العدسات اللاصقة، لم ألتقط منه سوى عبارة قالتها إحدى الفتيات لتدافع عــن اخــضرار عينيهــا السوداوين:

ـ أنا حرة. ألبس عدسات لاصقة. أركب عين زجاجية. أنا حرة.

وأخذت مهر العروس الذي جمعته في سـنوات طويلـة، وذهبت إلى جراح العيون الذي كنت كل يوم أطالع لافتة عيادتـه من نافذة الأتوبيس فقال لي:

ـ تعالى بعد أسبوع أجري لك الجراحة.

وخرجت هذه المرة من العيادة بعين واحدة تـرى النـاس والأخرى يراها الناس من بعيد فيحسبونها سليمة لم يمسسها سوء. على المقهى وقف النادل متجمدا أمامي وهز رأسه وقال:

ـ سبحان مغير الأحوال.

وزميلي الذي يكرهني ابتسم ساخرا وقال للشاب الذي لـم يعد جديدا في العمل:

ـ لا تزال عوراء.

والفتاة التي لم أعد أمتلك مهرها قالت لأمها:

ـ إذا ضعفت عينه الثانية سأجره على الأرصفة ونتـسول سويا.

تركت الحارة التي أسكن فيها، وطلبت نقلي مـن العمـل، فأصبح لي عالم جديد لا يعرف أحد فيه شيئا عن عيني الزجاجية. واسترحت بمرور الأيام لأناس يمرون بوجهي مرورا عابرا، كما هو حالهم مع كل الوجوه التي يطالعونها، ولمقهى لا يعرف نادله حكاية الحجر الذي ضرب عيني.

وفي ظهيرة مبهرة رأيتها تمشي مسرعة من أمام المقهى. مرت كحلم جميل في ليلة صافية، وذيل تنورتها يلملـم عـشرات العيون المتلصصة على جمالها الأخاذ. وكنت قد أرسـلت إليهـا عيني السليمة وقصدي الشريف، فذهبت إلى دارهم ليلا خاطبـا. ساعات كاملة أتجاذب مع أفراد أسرتها أطراف الحديث، ونحـن نجلس متقابلين على مقاعد صالة شقتهم الواسـعة، مـن دون أن أشعر في أي لحظة أن أيا منهم يحملق في عيني الزجاجية.

وتشجعت وواعدتها وخرجنا ذات عصر سويا نرتب للأيام الآتية. جلسنا متقابلين على طاولة أحد الأندية المواجهة للنيل. كان الماء ينساب في أوردتي التي جفت في رحلة مضنية للبحث عـن روعة العشق والعش الدافئ، وكانت شمس الأصيل تلقـى علـى رؤوسنا وداعتها، فانطلق لساني يعبر عن مكبوت الهوى. ورأيت تألق عينيها السوداوين وشعرت أنني أكاد أطير مع السحاب العابر هناك فوق البنايات الشاهقة التي تتراص على الـشاطئ الآخـر. رفعت أنفي إلى النسيم العابر المعبق برائحة الياسمين النابت على جنبات المكان، فسقط شعاع الشمس في عيني تماما. لا أعرف كم من الوقت مر وأنا أحلق بأنفي في موجات النسائم الطرية، لكنني الآن أعرف جيدا اللحظة التي عدت أنظر فيها إليها فوجدت دهشة وتساؤلات عميقة في عينيها، ووجلا يكسو وجهها، وهـي تـرى لمعانا غريبا على عيني اليسرى تصنعه الشمس الراحلة إلى البلاد البعيدة.

❖

سحر حيّ

" لا تتكبروا، ورقوا للحجر!
وليكن لكم شعور من حرم الشعور
تقاسموا الحياة مع من يعيش الموت
وحده إلى الأبد
وعندئذ يغدو الموت رقيقا بالنسبة
لكم كالمحبة".

فيورباخ، من كتابه: "تأملات في الموت"

١ ـ غزالة

استقر السهم في نحرها فهوت صريعة. اقترب منها مهللا بصيده الثمين وسال لعابه للحم المشوي الذي سيلتهمه بعد فترة وجيزة. كانت رجلاها الخلفيتين لا تزالان ترتعشان ببطء. ولما خمدتا تماما جثا على ركبتيه لينزع السهم من عنقها الراقد في الدماء. وضع يده وراح يسحب وضحكاته تجلجل في الفراغ، لكن زفرة خافتة جعلته يتجمد مكانه. وحين رفع رأسه لأعلى التقت عيناه بعينيّ الغزالة الذابلتين.

كانتا مفتوحتين كبحيرتين راكدتين ورأس السهم تظهر هناك في قعرهما العميق فتنتصب وسط دغل وارف الظلال. أغصان متشابكة وأوراق يسقطها الخريف. غراب قتل أخاه وراح يرفرف فوق جثته فرحا، وثعبان ينزلق على جذع إحدى الأشجار في صمت ليمسك عصفورة مريضة لا تقوى على الطيران، ويبلعها متلذذا.

وهناك في البعيد تفرش السماء زرقتها المزركشة بسحاب عابر. في الأبعد هناك امتنان بالراحة الأبدية وسكون لا حدود له، وسخرية من الضباع التي كانت تطارد الغزالة على مر أيام عصيبة. اقترب أكثر فرأى رأس آدمي متهدل الشعر، يعض على شفتين غليظتين كالقسوة، مطبقتين في حزم مصطنع، له أنف أفطس يتوسط وجها شاحبا، تكسوه رغبة ولهفة، لا يلبث أن يغوص إلى العميق فيكاد يلتصق ببياض السحاب، الذي راح يزخ قطراته على الدم المسفوح في مساحة ضيقة، تكفي قبرا واحدا لآدمي يموت وحيوان أبلق يتشبث بالحياة.

٢ ـ زرقاء الحمامة

هاهو يا صاحباتي يحدث زوجته التي سمنت من لحم أخواتنا، ويضرب ابنه الذي أبى أن يأتي معه بالأمس إلى هنا لينصب لنا فخاخ الذبح. ها هي ابنته الكبرى ترمي الحطب تحت قطعتين كبيرتين من الحجر تحملان إناء اسودت جوانبه، يهتز من ماء يغلي على فلذات أكبادنا اللاتي وقعن في حبائله، والريش ملقى هناك أمام داره، تبول عليه الكلاب الجائعة.

هاهو قد اتجه إلى حماره، الذي يسير خمس ساعات كاملة حتى يصل إلى مكاننا هذا، يجهز ركابه، وينادي بصوته الأجش ابنه ليأتي معه، لكنه يجري ناحية عيال صغار يلعبون الكرة في أحد الشوارع الواسعة. يجري وراءه، ويمسك الكرة، والعيال يراقبون الموقف من بعيد. يقبض على الكرة بيده الخشنة التي

طالما قبضت على أخواتنا، ويلقي بها فوق أسطح أحد البيوت. ترتطم بالسطح فتحدث صوتا يرعب يمامة صغيرة كانت تسعى إلى التقاط عشر حبات قمح سقطت من امرأة تجهز للطحين من أجل قوت صغارها، الذين يلعبون الكرة. تهم اليمامة الضعيفة بالطيران، فتنقلب على جنبها، لكنها لم تلبث أن تسترد عافيتها القليلة، وتطير إلى شواشي نخلة قصيرة تتوسط الدار.

يصرخ في العيال فيجرون بعيدا، ويجذب ابنه بقوة من ساعده، ويجره في تراب الشارع وأوحاله، حتى يضعه عنوة فوق ظهر الحمار. يقفز أمامه ويضرب حماره بعنف ليأتي إلينا هنا حيث يبني سجنه المؤقت الذي ينتهي بإعدامنا.

لا يزال بعيدا يا صاحباتي فلننزل ونجمع حبات القمح من على قارعات الطرق في موسم الحصاد، فالفلاحون يقذفوننا بالحصى فلا نستطيع أن نقترب من أجرانهم العامرة بالغلال إلا بعد رحيلهم عنها. حين يأتي سندخل أعشاشنا، ولن نخرج منها أبدا حتى نرده إلى بيته في المساء خائبا. ومرة تلو مرة لن يجد ما يبيعه لصاحب المطعم الذي يقدم للجائعين اليمام وأحيانا الغربان على أنها حمام بلدي. ويوم بيوم لن يجد ما يسد احتياجات زوجته التي لا تكف عن شراء الملابس والحلي من أجسادنا اللذيذة الطرية. هي لن تسكت عن مطالبته بالصيد، ولن يصطاد شيئا. ستقلب جيوبه ولن تجد فيها الجنيهات التي كانت تسرقها دائما. ستتشاجر معه لأنها لا تستطيع أن تعيش من دون أن تشتري لنفسها أشياء وأشياء، وهو لن يتحمل شجارها، الذي يقض

مضاجع جيرانهم بالليل ويزعجهم بالنهار، وعندها سيجد نفسه مضطرا إلى البحث عن مهنة جديدة، ونجد نحن أنفسنا نغادر سجوننا الهشة إلى براح الأراضي الوسيعة.

❖

عين صفراء

"إن مسك الشك فانظر في مرآة نفسك مليا"

نجيب محفوظ، من "أصداء السيرة الذاتية".

مات اليوم عوض أبو سليم وارتاحت القرية كلها لرحيله الأبدي. وقال رجل بعد أن سمع النعي في مكبر الصوت المثبت في رأس نخلة تعتلي المسجد:

ـ أنقذنا الله من عينيه الصفراوين.

وقال رجل آخر:

ـ أخذ الشر وراح.

ولم يجد محمد الشماخ نفسه خائفا وهو يسوق نعاجه العشر التي يحلف للناس أنها كانت قطيعا كاملا، وتساقطت واحدة تلو الأخرى، لأن عوض كان ينظر إليه كل صباح وهو يدفعها أمامه إلى الحقل. وطلب دسوقي من ابنه أن يخرج إلى الشارع والكتاب في يده، لأن أحدا لن يحسده بعد اليوم، مثلما حدث قبل شهرين حين كسرت ساقه اليمنى بعد أن قال له عوض:

ـ إنت ولد فالح.

عند الضحى اشتبك الناس أمام المسجد في جدل طويل حول صلاة الجنازة، حتى حسم أحدهم الأمر حين أكد للجميع أن عيني عوض قد أطبقتا إلى الأبد، وطاقته الشريرة ستدفن معه.

وطلب الإمام من المصلين أن يقرؤوا سورة "الفلق"، وحين انتهوا حملوا الخشبة على أكتاف أربعة رجال أزاحوها بعد قليل إلى أربعة غيرهم، وقالوا:

ـ ثقيلة.

فرد شاب كان يمشي في الجنازة صامتا:

ـ لكنه كان نحيفا.

فلكزه آخر كان يسير وراءه قائلا:

ـ ذنوبه ثقيلة.

والرجال الثلاثة الذين سبقوا الجنازة في البكور إلى المقبرة، ليحفروا القبر قالوا إن مهمتهم كانت أسهل من مرات كثيرة سابقة، لكن أحدا لم يصدقهم، لأن الجميع اعتادوا أن الطيبين فقط هم الذين لا يتعب الناس في تجهيز موتتهم. وفسر أحد المدعين الأمر بقوله:

ـ ربك يريد أن يخلصنا بسرعة.

فأمن آخر على كلامه:

ـ النار تستعجله.

لكن ابن دسوقي الذي لم يفارق الكتاب يديه وهو يمشي خلف الجنازة قال لهم في ضجر:

ـ اذكروا محاسن موتاكم.

فقال له رجل طاعن في السن:

ـ قل هذا لأمك التي ملأت البلدة كلاما حول رجلك المكسورة وعينه الصفراء.

وحسم إمام المسجد الأمر حين قال:

ـ هو الآن بين يدي الله، فخلوا أمره لمولاه.

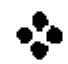
وخلاه الناس وانصرفوا جميعا بعد أن اطمأنوا إلى أن جسده صار مغمورا تحت أكوام التراب والأحجار الثقيلة. وبعد أسبوع فقط نفقت نعجة من نعجات الشماخ، وكسرت الساق اليسرى لابن دسوقي، وأصيب إمام المسجد بالتهاب رئوي حاد نقل على أثره إلى المستشفى ينازع الموت. وذات عصر هاجت الرياح وساقت أمامها أطنانا من الغبار وأوراق الشجر اليابس، وزخ المطر ثقيلا فاهتزت له بيوت الطمي، وترنح بعضها ثم لم يلبث أن انهار، وغرقت صوامع الغلال الصغيرة التي بناها الفلاحون فوق أسطح البيوت، وسقطت الأشجار الصغيرة، ونامت عيدان القصب والذرة.

وقال رجل يلملم أشياءه القليلة من تحت جدران شبه مترنحة:

ـ عين وأصابتنا.

وقبيل الغروب خمد الريح، وتيبس المطر. وتحلق الناس حول الرجل الغريب، الذي اشترى ستة قراريط من زوجة عوض

وسكن قريتهم، منذ يومين فقط. أخذوا يحملقون بارتياب في عينيه السوداوين يبحثون عن تفسير لما حدث لهم في اللـــون الأصـــفر الذي راح يتمدد في بياض مقلتيه بفعل مـــرض المـــرارة الـــذي أصابه منذ شهور قليلة.



وجع جميل

".. ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه أني أعرف من هام قلبه بمتّناء عنه نافر منه، فقاسى الوجد زمنا طويلا، ثم سنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل، أشرف منها على بلوغ أمله، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كـ "لا" و"لا" عاد الهجر والبعد إلى أكثر مما كان قبل".

ابن حزم "طوق الحمامة في الألفة والألاف"

بحيرتا السحر المائجتين فاضتا، والتقى الماء على روحـــي المهيضة وجسدي النحيل فغرقت في عشقها. هذه الفاتنة التي امتد بصري إلى عيونها يوما فارتد إلى قلبي وجعا جميلا، وشعرت أن شيئا ما يأخذني إلى حيث تسير فركضت خلفها. انثنت إلى حيــث تغيب الشمس فتبعتها، لكنها لم تلبث أن تاهت مني عند أول الليل. أسرعت الخطى، ولم تلبث أن اختفت في شـــارع بـــه عــشرات الحواري.

دخلت الحارة الأولى فقابلت رجلا طاعنا في السن، يتوكأ على أكتاف العابرين. اقتربت منه وهمست في أذنه:

ــ هل مرت من هنا؟.

فالتفت إليّ وسألني في دهشة:

ــ من؟

ــ تلك التي أخذني لحظها.

تمتم بكلمات لم أفهمها ولمع في عينيه ألق قديم، وتساءل مبتسما:

ـ هل تتذكر شكلها؟

ـ في عيونها ينام الليل، وتستيقظ كل الأساطير القديمة. رموشها نخيل ترقص فوقه السماء بين أجنحة النسيم. حاجباها طريقان يصبان في الجنة .. وعلى جبينها تطل كافة أقمار الدنيا.

ـ هل هي بيضاء؟

ـ سوداء بنية كقهوة الصباح.

ـ أسألك عن لون بشرتها.

ـ لم أر سوى عينيها.

ـ ماذا كانت ترتدي؟

ـ يكسوهما جفنان مخمليان يطل وراءها السحر.

ـ هل هذا لون ثوبها؟

ـ بل هذه عيناها.

ربت كتفي، وحلق ببصره في الحارة، وتساءل:

ـ متى مرت؟

فقلت والوجد يحول بيني وبين القبض على لحظة اختفائها:

ـ بالأمس وربما اليوم .. ومن المحتمل غدا..

ربت كتفي مرة ثانية وقال:

ـ هذا هذيان العشق يا فتى .. اذهب إلى الحارة المجاورة.

تسلقت المساء الذي ألقى بظلامه الدامس على الشارع، حتى طلت فرجة نور لمصباح واهن الضوء على أول الحارة.

صادفتني عجوز تتوكأ على الجدران المتهالكة. اقتربت منها، وهمست في أذنها بحرقة فقالت:

ــ صفها لي..

قلت وعيناي تطالعان الشرفات المعتمة علها تشرق في واحدة منها:

ــ في عينيها ألف طفلة تضحك، وألف طفل يقطفون الورود. رموشها فراشات تحلق في ضوء القمر. حاجباها سهمان من حرير، رشقا في خيالي وأيامي .. وعلي جبينها مسطرة كل حكايات العشق.

ردت العجوز، وفي صوتها ندم على زمن مضى:

ــ هل تتذكر شيئا آخر عنها؟

ــ ما رأيته في عينيها ملأ كل مساحات التذكر لدي..

ــ ما اسمها؟

ــ ذات العينين الساحرتين.

تنهدت في ضجر، وتساءلت:

ــ هل عرفت اسم أبيها؟

ــ الرجل الذي أتى بالنهار في الليل، والنعيم في العذاب، وأطلق اليمام ليصطاد القمر.

قالت العجوز، وفي صوتها حزن دفين، ورغبة في إنهاء الحديث بيننا:

ــ هذا هذيان العاشق يا فتى .. اذهب إلى حارة أخرى.

طفت كل الحواري. ومسحت بعيني شرفاتها، حتى نسج الفجر خيوطه الرمادية على أردية الظلام. قابلت رجالا ونساء وأطفالا. سألت الجدران والنوافذ. صار الناس يتهامسون كلما مررت بهم، وأطلق على بعضهم "مجنون عينيها".

وفي مساء اليوم السابع بعد المائة الثانية، وبينما أنا على حافة الموت جنونا، انتشلتني يد الحياة، كانت يدها. مستني أصابعها وأنا ملقى بجانب جدار يطل على مفترق الطرق التي تاهت مني عنده. قمت ثملا فطالعتني بعينين صافيتين. سبحت فيهما ما أمكنني، وقلت لها:

ـ إليّ بقارب النجاة..

قالت:

ـ سمعت عنك أيها العاشق الغريب فجئت إليك ..

همست لها وعيناي مغرورقتان بالدمع:

ـ تأخرت طويلا.

فقالت: لأنك لم تر مني سوى عيوني ..

ـ هي موطن سحرك، ومرآتك التي تقول ما لا تنطقين به.

ـ لكنني أخبئ كل ما هو جميل .. واليوم سأكشف لك المستور.

وأخذتني إلى حارة في حارة. وبيت في بيت. وغرفة في غرفة. أجلستني على طرف مخدعها. وقالت:

ـــ اغمض عينيك.

وراحت تنزع عن كنوزها ثيابا من ثياب. فلمـــا صـــارت على هيئتها الأولى، قالت:

ـــ افتح عينيك.

وفتحت .. نهران من لبن. أخدود مـــن عـــسل مـــصفى. عصافير تغرد وفراشات تطير على لهب ونور. تمددت وجذبتني من يدي وقالت:

ـــ من ذاق طلب المزيد.

والتقى الماء بالماء، فاشتعل الحريق مرات ومرات، حتـــى غاصت الدنيا تماما في بحار الرغبة واللهفة والأماني.

قلت لها وأنا أرتشف قطـــرات اللؤلـــؤ المتقـــاطر علـــى مرمرها، وأنفي تجوب عبيرها الفواح:

ـــ اضربي لي موعدا آخر.

فجلجلت ضاحكة وقالت:

ـــ مرة لن تتكرر.

وخرجت من عندها أجرجر ساقين متهالكتين في حـــارة .. في شارع .. في ميدان يطل على المجهول والليل المـــسافر إلـــى الصباح، حتى وجدت نفسي على حافة الشروق، لا أدري من أين جئت ولا إلى أين أمضي. لا شيء يملأ فراغـــي ســـوى الوجـــد والرغبة في الإياب إليها.

قطعت الشوارع والحواري بين طيات العتمــة. تحســست الجدران حتى وصلت إلى مدخل الحارة الأولى. بعد ساعات مــر صبي في مقتبل المراهقة، اقتربت منه، وهمست في أذنه بسؤالي الوحيد. تفرس وجهي مليا وقال:

ـ هل تعرف شكلها؟

فقلت وأنا أتابع الشرفات والطريق:

ـ عيونها كصباح الربيع. رموشها سنابل ترفــرف فــوق جداول من نبيذ. حاجباها خطان يمتدان من مخدعها إلــى نهايــة أحلامي وغربتي ..

مصمص شفتيه في أسى وقال:

ـ هذا هذيان العشق يا عماه .. ابحث عنهــا فــي حــارة مجاورة.

❖

الرقصة الأخيرة

"سأغني الأغنية
واغفروا لي . . كلماتي مزرية
وعلى جدران صوتي،
لم يزل رجع انفجار فائت
غير أني سأغني الأغنية
باذلا فيها قصارى طاقتي
فأعيروني أذنا مصغية . ."

سميح القاسم،
من قصيدة "أغنية مشوه حرب"

شحرت العربة وغرست عجلاتها الأمامية في الرمال، تطلعت هناك في البعيد، فامتلأت عيناي بصفار الكثبان الرملية. ولما اندكت العربة دكا نثرت ذرات فوق أهدابي التي أتعبها سهر الليلة الماضية. كانت الصحراء مفتوحة على الليل الأسود المثقوب بين الفينة والأخرى بألوان صفراء وحمراء وزرقاء لنيران العدو.

سقطت ذرات الرمل السافي على ركبتيّ حين نفضت جبهتي، لكن اثنتين فقط تسللتا إلى المقلتين فانطلقت نيران أخرى في رأسي. مددت يدي لأدلك المقلتين والجفنين والأهداب. أخمشها بأظافري الطويلة لعلها تطفئ النار، أو تعيد إلى عيني النور، فأعرف أين نحن الآن، بعد أن انقطعت بنا السبل، وجنودنا هناك ينتظرون ما معنا من ذخيرة ليملأوا الميدان رقصا ببنادقهم التي

تجندل أجسادا لجنود العدو الذين قتلوا كثيرين منا بالأمس، بعد أن وهنت نيراننا أمام ذخيرتهم العامرة.

كانت أصابعي باتجاه رأسي، وأظافري باتجـاه المقلتـين تفتش فيهما عن ذرتين من رمل هائج يبتلع نصف العربة ونصف الأمل في الوصول إلى الجنود. ها هو ظفر السبابة يتجـه إلـى العين اليمني، وظفر الإبهام إلى العين اليسرى. ينفـتح الجفنـان والظفران مستمران في البحث. الأول حاد يخمش بقدر ما سـب أولئك الذين ألقوا بنا في معركة لم نستعد لها. والثاني على الوتيرة نفسها التي عليها السائق القابع بجواري، إذ يفـيض اليـأس مـن راحتيه اللتين دفعتا العربة من الخلف والجانب والأمام لتخرج من الرمل اللجي من دون جدوى، فجلس صامتا يحملق فـي التبـاب المتلاحقة، بعد أن ترك لي عجلة القيادة ممنيا نفسه أنني سأستطيع أن أفعل الشيء الذي لم يتمكن هو من تحقيقه. كان يحملـق مـا وسعه في الصحراء الممتدة بلا نهايـة، وعلـى شـفتيه ترتـسم ابتسامات غامضة لم أعرف كنهها. لكنني لم أعبأ بـشيء سـوى حبة الرمل التي توغلت في مقلتي.

ها هو ظفر السبابة يكاد أن يزيح ذرة الرمل، وظفر الإبهام لا يزال يفتش عنها في ساحة المقلة. يحفر ويحفر، ويترك وراءه وجعا يمتد إلى كل الرأس. إلى الفم فيصرخ، وإلى الأذنـين فـلا تسمعان صفير الريح خارج العربة، وإلى روحـي فتتخلـع مـن مكانها .. تتخلع. وأنا الذي لم أكن أرى شيئا منذ دقـائق رأيـت أشياء بعيني اليمني التي تمكن ظفر السبابة من تخليصها من ذرة الرمل التي أطفأتها لدقائق. رأيت دماء تبرقش "الأفرول" وتتسكب

على الذراع، وتلطخ العين اليسرى للسائق، وتسيل في أرضية السيارة. تفلت من بين جوانب باب العربة وتلون الرمل. وضعت راحتي وقلت للسائق:

ـ ضع راحتيك على عيني اليمني لتغلق نافورة الدماء.

جثا على ركبتيه، ووضع كفيه فوق عيني والدم ينهمر من أصابعه. رفع صدره وطبعه فوق رأسي والدم يتفجر من تحت إبطيه، ويسيل ليجري في فجاج الرمل. رفعني وانزلقنا خارج العربة، وراحتاه فوق عيني. كان يملأ كفيه بالدم، يفرغهما سريعا ويعود إلى عيني. وربما في المرة العاشرة صرخ وهو يرى شيئا يلمع في الدم المختزن بين كفيه، وملأت صرخته جنبات المكان، ثم راح يقهقه ما وسعه ويقول:

ـ ليست ذرة رمل .. إنها صورة الموت في قعر العين البعيد.

ـ أنت تهذي.

ـ وأنت تتوهم أن هناك شيئا في عينك.. ليس هناك سوى جنود مدججين بالسلاح سيأتون بعد قليل ليقتلوننا.

ـ والدم .. والألم.

ـ دم أخواننا الذين قتلوا وهم ينتظرون المدد .. ودمنا الذي سيسيل بعد قليل.

ـ وملابسنا التي لطخها الدم، والرمل الذي تبرقش به.

ـ لا أرى ملابس ولا رمل.

ـ مسك الجنون.

ـ بل أدركت الحقيقة.

ــ لقد ضعت مني.
ــ ما أجمل أن نرقص سويا .. هنـا فـوق هـذا المـاء الرقراق.
ــ لكنني لا أرى ماء.
ــ لو كنت ترى لأدركت أن عينك سليمة .. ها أنا أراهـا سليمة لم يمسسها سوء.. ها هي تلمع في الماء المنساب من تحت أقدامنا.
ــ الماء مرة أخرى.
ــ سنلقي بجسدينا فيه بعد أن يملأهما الرصاص.
ــ رصاص.
ــ لن أدع الموت ينتظر كثيرا .. سأخلع ملابسي استعدادا للرصاص.
ــ بل سنحاول الخروج من هذه الورطة.
ــ أي ورطة؟
ــ العربة الهامدة والذخائر المعطلة والرفاق المنتظرون ..
ــ العربة ماتت وأنا سأموت جانبها.. أنا لا أخاف المـوت مرحبا به .. سأذهب إليه .. هاها .. هاها..
ــ هذه سخافة في وقت لا يحتمل سخافات.
ــ بل هي الحقيقة الجلية.. كلنا إلى ذهاب.

وراح يخلع ملابسه، حتى تجرد منها تماما، ثم أخذ يحفـر في الرمل بهمة غريبة حتى صنع أخدودا غائرا، وألقـى بجـسده داخله، وأخذ يسحب الرمل على ساقيه الممدتين ويقول:

ــ بيدي لا بيد الأعداء.

❖

أنفاق طويلة

".. جميعنا بلا استثناء خبر أو شعر في لحظات ما أن الحياة أصبحت عديمة الجدوى، وأنها كفاح طويل وعقيم، ولحظات الفرح فيها والسعادة أقل بكثير مما فيها من مشقة وجهد.."

د. عبد الستار إبراهيم، من كتابه:
الاكتئاب اضطراب العصر الحديث: فهمه وأساليب علاجه"

ـ ١ ـ

كانت القرى عارية. لم تكن قد كستها تلافيف الشجر الكثيفة الداغلة ولا عراجين النخل الباسق. بنايات الطوب اللبن الرمادية علامات مميزة بين مسطح أخضر ممتد حتى المدى، منخفضة إلا مئذنة المسجد التي تطعن الفضاء.

الجسر كان خاليا من المارة في وقت الظهيرة. الشمس تلهب أكداس التراب. يسيل العرق من جبين جدي، يتصبب على وجهه الأسمر. يمد ساعده فيرجع طرف كمه مبتلا. يرفع هامته، ليشتهي ظلال السدرة الوحيدة الواقفة على حافة الجسر.

لمحه جدي يمتطي صهوة حصانه الأبيض، يتمايل ويغازل نسمة خاطفة سرعان ما قتلها الصهد المنبعث من كل مكان. عجرفته تمددت في ظهره المتصلب للخلف. وكان التجهم مطبوعا على ملامحه المنقبضة وأنفه الحاد المنفوخ بالزهو، وشفتيه المزمومتين بحزم مصطنع.

ولأن جدي كان من رعاياه المساكين فقد أطلق ساقيه للريح، غير مبال بقلبه الآيل للسقوط، حتى استقر أمامه، مصفر الوجه، مرتعش الأطراف، يزيح جسده عن قدمي الحصان الأماميتين اللتين كادتا أن تدهمه. رفع يده إلى جانب رأسه، ثم حطها على صدره، وخطف انحناءة، وقال:

ـ أوامرك يا سعادة الباشا.

تنحنح وقال:

ـ لماذا لم تذهب إلى شغلك يا خنزير.

فاستجمع جدي بعض شجاعته وقال:

ـ طردني وخصم أجر كل الأسبوع.

ـ من؟

ـ فهمي أفندي.

ـ لماذا؟

ـ الفأس قطع إصبعي. جلست أربطه. رآني فصرخ:

ـ هنا لا مكان للعاجزين .. ثم .. ثم ..

ـ ثم ماذا؟

ـ ألهب ظهري بالسوط.

ضرب جنبيّ الحصان بساقيه، فانطلق وترك وجه جدي يلعق الغبار، ويهدهد دموعا لم تلبث أن غالبته، وسحت على ركبتيه المنطبقتين على رأسه، وجلبابه الرث، والخطوط الحمراء والزرقاء والسوداء التي صنعها السوط في ظهره، وعجزه أن يعود في المساء إلى جدتي المريضة بحفنات من القمح أو الشعير.

ـ ٢ ـ

تكاثفت الأشجار، وتلاحم النخيل. ضاعت الملامح القديمة لقريتنا. تلك التي عرفها جدي، وكانت تسكن مخيلته حتى لفظ أنفاسه هناك تحت السدرة، التي نال منها الزمن، وبدت عجوزا شمطاء، لكنها جادت لمحيطها بسدرات باسقات، تتساقط ثمارها فتطعم الأولاد الصغار العائدين من المدرسة.

تتوارى الشمس خلف الآجام الخضراء، ثم لا تلبث أن تتسرب أشعتها بين الأغصان، فيسري الدفء في عروق أبي. كنت أجلس أراقبه، وفأسه تقضم التربة في نهم. تلثم عيني سطور الكتاب ثم ترتد سريعا إلى معوله الذي لا يشبع، والأرض التي ترقص وراءه فرحانة بثوبها الجديد.

وهده التعب، فأتى وجلس جواري، يلملم قطرات العرق ويروض الأنفاس اللاهثة. أشار إلى جيب جلبابه فأحضرته إليه. دس يده في جيبه وأخرج المصحف. فتح سورة "الأعراف" وجاد للأسماع بصوت شجي، يملأه الخشوع، ويبعث على البكاء.

سألته يوما: أين تعلمت القراءة؟

ـ في الكتاب.
ـ أتحفظ القرآن؟
ـ نعم..
ـ كله؟
ـ وأحفظ مئات الأحاديث النبوية.

ذات ليلة حالكة الظلام، شعرت أن يده تزحف بحثا عنـــي، فاقتربت منه. طوقني وراحت أصابعه القوية تتخلل شعري الناعم، فتبعث الاطمئنان في نفسي. أمسك يدي الطرية وشد عليها قائلا:

ــ إياك أن تنكسر.

فحملقت إليه، وأنا لا أفهم شيئا، لكنه أردف:

ــ ستأتي أيام صعبة، وستتفطر القلوب حزنا.

ــ لمَ يا أبي؟

ــ ستعرف يوما ما.

قضى عقلي الصغير كل الليل يتخبط لعله يفهم شـــيئا مـــن دون جدوى. ذات ليلة داهموا بيتنا قبيل الفجر. انتفضت مذعورا، ورأيت أبي محاطا بالأذرع القوية، وحجبته أجساد غليظة عني .. وتباعدت المسافة بيننا إلى الأبد.

صرخت يومها في وجه الضابط: أترك أبي.

طبع قسوته على خدي صفعة كادت أن تزهق روحي، ثـــم انهمرت الشتائم العارية تلوث براءة أذني. حشروه داخل عـــربتهم التي تشبه السجن الصغير، وانطلقت تزمجر، حتى ذابت في عمق الظلام، ولم تبق منها سوى غلالة ضوء ترتعش فـــوق الأشـــجار والنخيل.

وحين كبرت قالت لي أمي: مات في السجن.

ــ هل كان مجرما؟

ــ لم يدخل الحرام جوفه .. ولم يقتل أحدا.. كـــان رجـــلا شريفا.

ـ وكيف يسجنون الشريف؟

ربتت كتفي وغالبت دموعها وقالت:

ـ لعن الله السياسة.

ولم أفهم من كلامها الكثير، لكنني أدركت تماما سر نحيبها في الليل، وعرفت سبب الإجهاد الذي يصيبها طويلا، وتلك السحابات السود التي ترابط أمام مقلتيها المنطفئتين، والانزواء بعيدا عن الناس، والغضب الذي يحتل ملامحها حين ترى صورة وزير الداخلية في التلفزيون، أو تسمع صوته في نشرة الأخبار، وسر كراهيتها للرجل الذي يقطن أول شارعنا وأسمع الناس تقول أنه "مرشد للمباحث".

ـ ٣ ـ

تجردت الأشجار من أوراقها، واستسلمت للخريف الذي صمم على تعريتها بريح متربة صافرة، تكدر صفو الدنيا والنفوس، وتسوق الأوراق الساقطة إلى قلب الشوارع، فتتكدس عند فوهات الحواري الضيقة. وأخرج من حارة منها أواجه الغبار والريح والنسوة الجالسات على عتبات البيوت، يخفين وجوههن خلف الطرح السود.

تسألني واحدة منهن، انقطعت أخبار ابنها في العراق:

ـ هل قامت الحرب يا "باشمهندس"؟

فأرد وأنا أطالع عناوين الصحيفة:

ـ لا يا خالة .. لكن يبدو أنها ستقع لا محالة ..

وتأخذني الصحيفة من الناس، فانزوي ممددا على أريكة في ركن الغرفة الداخلية. أقلب صفحاتها جميعا بحثا عن أخبار الحرب والوظائف الخالية وحكايات المتعبين مثلي. ولما يغلبني الليل أنعس ورأسي مسجى بأوراق الجريدة. ويأتيني صوت أبي في الأحلام:

ـ لا تجعل الحزن يقتلك..

فأرمي رأسي على صدره باكيا وأقول:

ـ خمس سنوات منذ تخرجي في كلية الهندسة ولا أجد عملا.

فيربت ظهري ويقول:

ـ أكسب لقمتك بالحلال من أي عمل مهما كان بسيطا.

أرفع رأسي وأثبت عيني في عينيه وأقول:

ـ والشهادة التي حصلت عليها .. والأحلام العريضة .. ونظرة الناس إلي.

فيقبل جبيني ويقول:

ـ إذا امتلكت اليقين لن يهمك الناس، وإذا امتلكت الإرادة ستحقق أحلامك.

ثم يغيب مني فجأة في عوالم مفضضة وصفراء فاقع لونها تنسدل وراءها ستائر سوداء تحجبه عني، فأصرخ وأناديه أن

يأتي، فينشق الظلام عن يد كبيرة تسلم علـــي، ويـــأتيني صـــوت مطمئن:

ـــ لن تراني حتى تغلب آلامك.

أنهض مذعورا، فإذا بالشمس تفيض من شـــباك الحجـــرة وكوة في أعلاها، تحت السقف مباشرة، وتـــدثرني بنـــور ودفء، فأتسلم على الفور عملي الذي تعودت على إنجازه كـل صـــباح، وهو الحملقة في الجدار المواجه لي. وقبل أن يشتد اختناقي أخرج حاملا في صدري حشرجة البكاء وبعض أمل مرتجـــى. أتـــرك قدمي للطريق. اركل كل حجر يصادفني. أدفعه فيمـــرق ليـــستقر هناك فوق بسط النجيل، أو يصنع دوائر متتابعة على صفحة مياه الترعة.

لا مكان يحتويني سوى تحت الـــسدرة، حيـــث الـــذكريات الأليفة. الأب الذي ذهب من دون رجعة، والجد الذي كابد حتـــى سقط بلا حراك، وآمال طفل غض كان يتسلق جـــذعها بأصـــابع دقيقة كمخالب قط ويصعد إلى أعلى، من دون أن يدرك أن الحياة سترمي به يوما ما إلى أسفل، وأن عيشته ستصبح سلـــسلة مـــن الانتظار، ومحطات لا تأتيها القطارات، ولا يرد إليهـــا مـــسافر. راكدة كمياه المستنقع، الذي طالما كنا نلقي بأجسادنا فيـــه ونحـــن صغار، حين كانت مياهه تجددها ترعة صغيرة صبت فيه ســـنين قبل أن يردم الفلاحون الحبل السري بين الترعة والمستنقع.

ها هو قرص الشمس يجنح إلى المغيب، حمرتـــه تخمـــش جراحي النازفة، وترسم خيوطا من الخوف على جـــدران قلبـــي فيرتجف، بعد أن تتحول بسط البرسيم الرائعة إلـــى بحـــر مـــن

الظلام. ولما يوغل الليل في الرحيل يأتيني وجهه الصبوح، ويقول في ثقة متناهية:

ــ إياك أن تتكسر..

فأدفن وجهي بين ركبتي وأقول له:

ــ كاد الحزن أن يقتلني يا أبي.

فيغمغم بحروف لا أفهمها، صوت يشبه تماما شحير العربة التي أخذته يوما. أضع إصبعي في أذني، وألثم الأرض مهــرولا إلى حضن الضوء الشحيح في شوارع قرية غافية.

❖

المحتويات

❖

صدر للمؤلف

قصص و روايات

عرب العطيات: قصص

حكاية شمردل: رواية

جدران المدى: رواية

دراسات

الصوفية و السياسة فى مصر

النص و السلطة و المجتمع

وزارة العدل المصرية: سيرة مؤسسية

ممرات غير آمنة

التكافؤ الاقتصادى و الديمقراطية

التحديث و تفكيك البنى الاجتماعية التقليدية

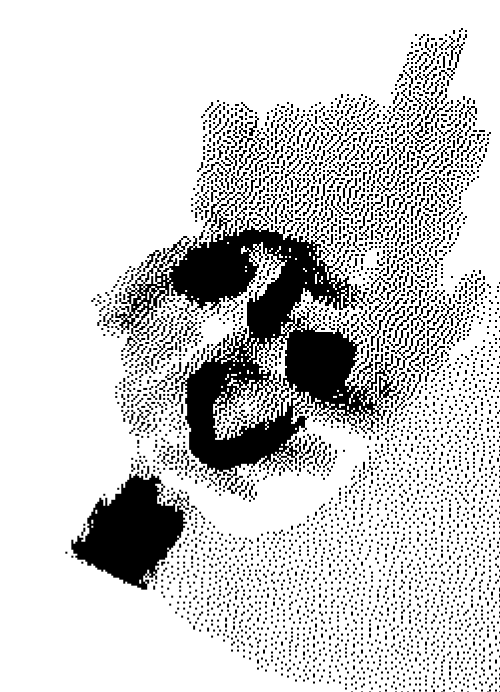
الفريضة الواجبة

تحت الطبع

نفق في نهاية الضوء: رواية

العلاقات المصرية- الخليجية

المفترض و المتاح




دار شرقيات
للنشر والتوزيع